جزيرةُ المغامرات

جَمِيعُ الحقُوق مَحفُوظَة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه
بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير
أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان
بالحاسبات الإلكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن
مكتوب من دار المكتبي.

تمَّ إصدار هذا الكتاب بِدَعمٍ مِن برنامج «أضواء على حقوق النشر» إحدى مبادرات معرض أبوظبي الدولي للكتاب، بدولةِ الإمارات العربية المتحدة.

دمشق – القاهرة – الشارقة

هاتف 00963 11 2248433 00971505471688

e-mail: almaktabi@gmail.com فاكس 00963 11 2248432 ص.ب 3309

www.almaktabi.com

جميع الحقوق محفوظة

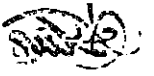

جزيرةُ المغامرات

Macera Adasi

أحمد يلماز بويون آغا

Ahmet Yilmaz Boyund ağa

ترجمة: مصطفى حمزة

دار المكتبي

تَعريف بالمؤلف

أحمد يلماز بويون آغا (١٩٣٥-١٩٩٥)، مجاز في كلية الآداب، قسم التاريخ، من جامعة إسطنبول، **له أبحاث وروايات تاريخية كثيرة، منها:**

- الشاب البطل / السيد الغازي المشهور بالبطال.
- في سبيل الهلال / صلاح الدين الأيوبي والحروب الصليبية الثالثة.
- سناجق الفتح / من أسود بدر إلى عصر الفاتح.
- رياح النصر / الرئيس طورغوت.
- الطفل والبئر / سيدنا يوسف.
- الفرمان الذهبي / بركة نويان.
- حديقة الورود النارية / سيدنا إبراهيم.
- تنين البحر.
- القائد الأسطورة / طارق بن زياد.
- المقاتل الجسور.
- مطاردة القراصنة.
- جزيرة المغامرات.
- في النهر صندوق / سيدنا موسى.
- الطوفان / سيدنا نوح وسيدنا هود وسيدنا صالح.
- في سبيل الحرية / الشيخ شامل.
- الصخور التي لها صدى.
- خان أوغلو / بطل من السلاجقة.
- أبطال العثمانيين / مغامرات الرئيس السيد علي ورجاله.
- الصفحات الذهبية / قصص تاريخية ودينية.
- التاريخ الإسلامي.
- النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون الأوائل.
- حروب الرحمة.
- البناء التركي الإسلامي.

العاصفة

هبت عاصفة قوية تقتلع كل ما يأتي في طريقها، والغيوم الداكنة السوداء حجبت صفحة السماء، وألقت بظلالها السوداء على البحر، فغاب عنه لونه الأزرق الجميل، وأطلقت النوارس التي تحوم فوق السفينة صيحات خوف مؤلمة.

كانت الأمواج المتلاطمة العالية كالجبال تلعب بسفينتنا الكبيرة كأنها قشرة بندق، والأمواج تضرب السفينة بقوةٍ، ثم تتناثر كقطع الزجاج في كل مكانٍ مُبَلِّلَةً كلَّ

شيءٍ.. كان الرُّبَّان مع طاقمه يتَرَنَّحُون يمنةً ويسرةً على غير هدىً، ولم يكن هناك صوتٌ يعلو على صوتِ هديرِ البحرِ.

ارتطَمَتْ موجةٌ عاتِيَةٌ بالسفينة، وجرّت معها إلى البحر كل من كان على سطح السفينة،.. ندَّتْ صيحةٌ مؤلمةٌ لرجلٍ من طاقم السفينة وهو يهوي من سطحها إلى البحر، وسرعان ما اختفت بين صفير العواصف وهدير أمواج البحر المتلاطمة، وبينما أنا على وشك السقوط في البحر؛ اصطدمت بفضل الله بسارية السفينة، وبينما كانت السفينة تهوي مع الموج وكأنها تسقط في الهاوية؛ احتضنت السارية بشدةٍ حتى توازنت السفينة، وبدأت ترتفع من جديدٍ على موجةٍ أخرى، فتمالكت نفسي، ووقفت على قدمي من جديدٍ.. ركضت سريعاً إلى قمرتنا حيث ينتظرني العم سالم وأصدقائي أَلْتان ورجب وجنكيز وطورغُوت ومعمر، وصرخت قائلاً:

- الوضع مخيفٌ، ويمكن للسفينة أن تغرق!.

قال العم سالم بلهجةٍ آمرةٍ:

- هيا ارتدوا طوق النجاة فوراً.

قمنا بارتداء طوق النجاة، وتعاونّا على ربطه على أجسامنا.

كان العم سالم يراقبنا بسرور، ثم تنهد بانشراحٍ وقال:

- بارك الله بكم يا أولاد!، هكذا ينبغي أن تتصرفوا، ولن أندم على قبولي لكم، وتحملي مسؤوليتكم إن شاء الله. ولْنَدْعُ الله أن يكون في عوننا!..

ولم يكد ينهي كلامه حتى بدأنا نتوسل إلى الله أن يكون في عوننا، وينقذنا من الغرق مع هذه السفينة التي تغوص وتطفو بين أمواج المحيط الهادرة.

كنا في عام ١٩٠٣م أبناء طاقم سفينةٍ غرقتْ في طريق رحلتها إلى الصين،.. كنا ستة أصدقاء، فأنا محمد في السادسة عشرة من عمري، ووالدي ربان السفينة الغارقة. ورجب ابن الربان الثاني، في الخامسة عشرة.. وجنكيز وألتان وطورغوت في الرابعة عشرة، ومعمر في الثانية عشرة من عمره، وهم أبناء رجال طاقم السفينة الغارقة.

شعرنا نحن الأولاد الستة بحزنٍ شديدٍ لفقدان آبائنا،

وعلى الرغم من كل الأخبار التي تجزم بأنه لم ينج أحد من ركاب السفينة؛ خرجنا بحثاً عنهم، فقد سيطرت علينا فكرة، ودفعتنا للأمل بأن أحداً ما يمكن أن يكون قد نجا، ووصل إلى جزيرةٍ مهجورة!.

جمعتنا هذه الفكرة، وعقدنا العزم على الخروج إلى البحر بحثاً عن آبائنا، وتوجهنا إلى العم سالم لنقنعه بالخروج معنا، فهو ضابط متقاعد، وصديق والدي منذ الطفولة.

رفض عرضنا في البداية، وهو يقول:

- لقد أصبحوا شهداء الآن!.

لكنه فكر قليلاً ثم قال:

- نعم ولم لا؟!، فربما نجوا إلى جزيرة في المحيط الهندي، وانقطعت بهم السبل هناك كما تقولون!.

وهكذا يسَّر لنا قبول العم سالم إرضاء أمهاتنا، فسمحن لنا بالسفر، وساهم العم سالم مساهمةً كبيرةً، فأضاف مبلغاً كبيراً على الأموال التي خصصتها عائلاتنا للسفر.

وخططنا معاً للرحلة، واتفقنا أن تكون البداية إلى الصين، ثم نبحر بمركبٍ شراعيٍّ ندور به على الجزر المحيطة لعلنا

نجد آباءنا.

نحن الآن على متن سفينة شحنٍ إيطاليةٍ متجهةٍ إلى الصين. مضى علينا شهر في البحر، في رحلةٍ بدأت بشكلٍ رائعٍ، حتى أفسدها هبوب هذه العواصف المخيفة ونحن نتقدم في المحيط الهندي. ومضى علينا يومان ونحن كأعواد كبريتٍ تغوص وتطفو في هذا المحيط الكبير، وبدأت السفينة تتصدع مصدرةً أصواتاً مخيفةً تشير إلى أن السفينة الكبيرة بدأت تتمزق تحت ضربات أمواج المحيط العاتية.

غرق السفينة

دوَّى صوت انفجارٍ مخيفٍ ابتلع مزيج الأصوات الأخرى، فأصابني بالذهول، وشتت أفكاري. ثم ما لبث أن أعقب الانفجار صوت تحطُّم أصابنا جميعاً بالذهول، وألقى كلَّ واحدٍ منا إلى جهةٍ، وارتفع صوت العم سالم يقول: - انتبهوا يا أولاد! كونوا على حذر! السفينة على الأغلب تنفلق إلى نصفين، إياكم أن تفترقوا عن بعضكم. احرص على معمر يا محمد! إياك أن تترك

يده، سنخرج من القُمْرَةِ قبل أن نغرق مع السفينة، هيا أسرعوا إلى الخارج...

تقدمنا نحو السطح نصعد السلالم بصعوبة في ظلّ السفينة المضطربة، ونحذر السقوط،.. كنت في المقدمة أمسك بيد معمر، إذ فاجأتنا موجةٌ عاتِيَةٌ تضرب السفينة، وترفعنا كورقة شجرةٍ جافةٍ، وضاعت صيحات العم سالم بين صوت العاصفة والأمواج العاتية، وواجهتني سارية السفينة فاحتضنتها بيد، وأحكمت باليد الأخرى على يد معمر، ونجونا معاً، واستطاع العم سالم وأصدقائي الآخرون أن يحفظوا أنفسهم من السقوط في المحيط.

ترك الرُّبَّانُ وطاقَمُهُ السَّفِينَةَ

حاول طاقم السفينة (وهم إيطاليون وألمان) إنزال قارب النجاة، فاصطدم بالسفينة وتحطم، وسارع الطاقم إلى القارِب الآخر، فأنزلوه إلى البحر، وقفزوا إليه بسرعةٍ، ولم يأبهوا لصرخات العم سالم بالتركية والألمانية:

- هيه.. هيه! لا تتركونا هنا!.

ولكن دون جدوى!.. كانت المجاديف تعمل بهمةٍ، وكانوا يحاولون الابتعاد بسرعةٍ عن السفينة الغارقة.. وانضم إلينا اثنان من أفراد الطاقم تخلفا عن أصدقائهما، وباءت كل محاولات الاستغاثة بأصدقائها بالفشل،

صفّرا، هزّا قبعاتهما البحرية دون جدوى.

وغابوا عن الأنظار، ثم لم يكن من الممكن أن نسمع صفيراً ولا صراخاً فدَوِيُّ العواصفِ وهديرُ الأمواج كان أقوى من كل الأصوات!.

كنا نتابعهم بحزنٍ وهم يبتعدون، ولم يكد يغيبوا عن أنظارنا حتى كانت موجةٌ عظيمةٌ هادرَةٌ تحمل ذلك القارب كأنه علبة ثقاب ثم تصفع به جسمَ السفينة بقوة مئات الأطنان من الأمواج، واختنقت معها صيحات الألم والخوف، واختفت في الصخب الذي أطبق على الآفاق، وتناثرت قطع القارب والرؤوس والأيدي على أفق البحر وصرخات الاستغاثة وهي تطفو تارةً وتغيب عن الأنظار تارةً أخرى.

- وصرخت قائلاً: يا للمساكين!.

- وقال العم سالم: يا للأسف!..

وأيقنت مرةً أخرى أن الخير دائماً فيما يختاره الله لنا، فلو ركبنا معهم القارب؛ لكنا الآن غرقى بين الأمواج.

صاح رجب:

- لكننا لم ننجُ بعد!.

صاح العم سالم:

- ماذا تقول؟!.

وضع رجب يديه على فمه في حركة تشبه البوق، وأجاب:

- ونحن لم ننج بعد!.

- لا تقطعوا الأمل بالله، فهذه الحادثة زادت أملي بالله أكثر، إن كان الله قد كتب لنا النجاة فلا بد سننجو. وعلينا أن نعمل جاهدين لكي ننجو، ونتوكل على الله ربنا.. انظروا، انظروا!.. فهذان الرجلان من طاقم السفينة ينادوننا!..

كان هانس وبيير بالفعل يحاولان إنزال قاربٍ إلى البحر، ويطلبان المساعدة.

بين الأمواج

أسرعنا إليهما ونحن نحاذر العاصفة التي كانت لا تزال شديدةً تعوق تنفسنا وتحركنا، وركبنا في القارب وقد تعاونّا على إنزاله إلى البحر.

وصاح بهم العم سالم:

– هيا يا أولاد اعملوا جهدكم! وتوكلوا على الله، وتضرعوا إليه، فهو وحده القادر على إنقاذنا.

ولم يكد العم سالم يتم كلامه حتى كانت موجة تحمل قاربنا وتلقي به بعيداً، وتفصلنا عن السفينة مسافةً

تقارب ثمانين متراً، وكأنما يدٌ خفيةٌ أرادت تأكيد ما قاله العم سالم.

وقال العم سالم بفرحٍ وحماسٍ:

- كلنا هنا، أليس كذلك يا أولاد؟!.

ثم تبادل أطراف الحديث مع هانس وبيير بالألمانية، بينما كان هانس وبيير يجدفان، وتناولت مجدافين كانا في القارب، وبدأت أجدف معهما.

وساد الظلام رويداً رويداً، وبدت سفينتنا تلوح لنا في الظلام كسوادٍ هائلٍ، ودوّى انفجارٌ هائلٌ، تصاعدت بعده ألسنة اللهب، وبدت كأنها وحشٌ يغرقُ في البحر...

صاح طورغوت:

- لقد غرقت سفينتنا، وأصبحنا الآن وحدنا في هذا المحيط.

أجابه جنكيز:

- لم تقول هذا! ألسنا معاً، ألا نملك قارباً سليماً؟!. ونحن أحفاد بربروس، نملك الأمل، ونملك الجرأة، وعمنا سالم معنا..

وعبَّر ألتان عن مشاعرنا جميعاً، وهو يصيح:

- عاش أحفاد بربروس!.. عاش عمنا سالم.

وكررنا جميعنا، وبصوتٍ واحدٍ الكلمات نفسها.

تأثر العم سالم كثيراً، وشاركنا حماستنا ويقول: عشتم أنتم أيضاً، ثم أضاف:

- أيها الأولاد مضت علينا فترة ونحن نتحدث فيما بيننا، وكأننا نسينا أن معنا غريبين لا يعرفان لغتنا، وهم شركاؤنا في قدرنا، علينا أن نلاطفهم فلا يشعروا بأنهم غرباء عنا، أليس هذا ما يليق بنا؟!.

- عاش العم سالم، عاش جمعنا!.. عاش هانس! عاش بيير!...

لم نكن نستطيع أن نتبين وجه هانس وبيير في الظلام، لكن السرور كان بادياً من تصرفاتهما..

كنا نتناوب على التجديف طوال الليل، كانت ليلةً قارسةً، وكان البرد يسكن عظامنا وينخر فيها، والخوف من المستقبل يقلقنا، ويطرد النوم عن عيوننا،.. مرت علينا ساعاتٌ مخيفةٌ ونحن ننتظر بزوغ الفجر،.. لم نكن

ندري كم انقضى من الليل عندما استسلم الأصدقاء لنومٍ عميقٍ.

إلى أين نتجه؟!

كانت خيوط الفجر الأولى تحاول أن تبدد ظلمة الليل، مع هدأة الرياح وسكون البحر، وكانت إطلالة الصباح الأولى تبشر بيوم هادئ جميل، والبحر الهادر الغاضب بالأمس كأنه ولّى، وحلَّ محلَّهُ هذا البحر الهادئ الوديع وهو يمتد حولنا على مدِّ الأفق!.. بدأت الشمس ترتفع، وبدأت أشعته تتسلل إلى أوصالنا، وتداعب فيها شوقها إلى الدفء بعد ليل بارد طويل!.

وتمطى هانس وبيير وهما ينهضان من نومهما، ومددنا أيدينا وغسلنا وجوهنا بمياه البحر. وقال معمر:

- أنا جائع جداً.

أضاف طورغوت:

- وأنا عطشان.

أيقظتنا هذه الكلمات لنواجه الحقيقة المؤلمة، فنحن في هذا المحيط الكبير بلا طعام ولا شراب. وتلاقت عيوننا بنظراتِ ابتسامةٍ طفوليةٍ تحاول نسيان هذه الحقيقة المؤلمة!.

وبدأت المشاورات بين العم سالم وهانس وبيير،.. كان هانس يتكلم بسرعةٍ وحماسٍ مشيراً بيده إلى جهة الغرب، وأشار بيير إلى الشرق، لكن هانس كان يهز رأسه وكأنه يقول: "لا يمكن هذا"!. وتدخل العم سالم بالحديث، وطال النقاش قليلاً، حتى ارتفع رأس العم سالم وهو يطلب التحرك إلى الجهة التي أشار إليها بيير!.

وبدأنا نحن الثلاثة: أنا وهانس وبيير بالتجديف، وحين رأى العم سالم الجهد الذي نبذله في التجديف؛ قال:

- لا تتعب نفسك كثيراً يا محمد!. ونَبَّهَ هانس وبيير أيضاً.. فالطريق مجهول وطويل.

ثم تركنا التجديف لرجب وجنكيز وألتان وطورغوت، كنا

نتناوب على التجديف، نجدف ونرتاح. واستمر مركبنا بالسير هكذا حتى العصر. ونال التعب من الجميع، وتمالأ عليهم حرارة الشمس الحارقة من جهة والعطش الشديد من جهة والجوع من جهة أخرى، وأصبحت شلالات المياه المتدفقة من بين الصخور تتراءى في أعيننا كالسراب، وكنا في هذه اللحظات على استعدادٍ لإعطاء كلَّ ما نملك مقابل كأس ماء... كم هي عظيمة نعمة الماء التي وهبها الله لنا!، لكننا لا نعرف قَدْرَها إلا في مثل هذه الأوقات!...

وأصبح كأس الماء أغلى من كنوز الدنيا.....

وقطعت عهداً على نفسي ، إن نجوت و وجدت الماء الغزير فلن أشكو أو أتبرم من أي شيء أياً كان.

كان رجب وألتان وجنكيز وطورغوت ومعمر يجلسون بهدوء تام.. من يدري ربما كانوا أيضاً يفكرون بما أفكر فيه؟!.

أما العم سالم فعرفنا من حركة شفتيه أنه يدعو الله، وقد قال لنا ذات مرةٍ خلال تلك الأوقات العصيبة:

- اصبروا يا أولاد فإن الله يحب الصابرين من عباده، والصبر مفتاح الفرج.

حادثة غير متوقعة

مضت علينا الليلة ونحن عطاش جائعون،وكنا جميعاً في حالة يُرثى لها، لكنّ هانس وبيير كان وضعهما أسوأ بكثير مما كنا عليه،كانا مستلقيين وسط القارب في حالةٍ سيئةٍ جداً لدرجة أنهما لم يكونا قادرين على الحراك.

قال العم سالم:

- أترون يا أولاد؟!إنكم على الرغم من صغر سنكم أظهرتم قدرةً على التحمل أكبر من هانس وبيير!. لماذا برأيكم؟!.

قال رجب:

- لأننا أصغر سناً.

ورد جنكيز معبراً عن وجهة نظره قائلاً:

- لا أبداً! كوننا أصغر منهم سناً يستدعي أن نتعب، ونشعر بالجوع أكثر منهم.

كنت على وشك أن أقول شيئاً حين بدأ العم سالم يشرح السبب وهو يقول:

- لا ليس السبب في صغر سنكم، بل لاعتيادكم على الجوع بسبب الصيام، فنحن نصوم قبل كل شيء ابتغاء مرضاة الله، وتنفيذاً لأوامره، إضافة إلى أن للصيام فوائده العديدة، وها أنتم تتلمسون واحدةً منها الآن!.

بعد سماع هذا الكلام تراءت أمام عيني موائد الإفطار التي كانت تعدها أمي في رمضان، وراودني سؤالٌ: تُرى هل سيُكْتَبُ لي أن آكل من تلك الموائد العامرة مرةً ثانيةً؟!

ثم استسلمنا للنوم من جديدٍ على أصوات الأمواج،.. وحين لفحتني أشعة الشمس فتحت عينيَّ لأرى العم سالماً مستيقظاً يدعو الله بخشوع، .. انتبه إلي فتبادلنا التحية، ثم سألته قائلاً:

- تُرَى ماذا سيحل بنا يا عم سالم؟!.

أجابني بوجهه المتفائل الذي لا يمكن لأية كارثةٍ أن تتغلب عليه:

- لا تقلق يا بني، الله هو الرزاق، يرزق جميع مخلوقاته،ولن يتركنا، فالذي أنجانا من الغرق؛ قادرٌ على أن ينجينا من الجوع والعطش، وهذا ما أرجوه وأنا على يقينٍ به،وأنت ماعليك إلا أن تتضرع إلى الله، وتقرأ آية الكرسي.

نزلت كلماته برداً وسلاماً على قلبي وبدأت أدعو الله،حتى سمعت صوت العم سالم وهو يقول:

- انظر إلى تلك الجهة.

نظرت إلى الجهة التي أشار إليها، لكنني لم أستطع أن أرى إلا وهج أشعة الشمس. فقلت:

- لا أرى شيئاً يا عم!.

مد أصبعه وهو يشير:

- هناك، انظر هناك.

نظرت بدقةٍ إلى الجهة التي يشير اليها بإصبعه.

- نعم! نعم! هناك سوادٌ، ولكن لم يكن واضحاً ما هو؟.

نظرنا إلى وجوه بعضنا قبل أن يقول:

- هيا سمِّ الله وابدأ بالتجديف!.

توجهت إلى مكان المجاديف، وأنا أحرص على تجنب النائمين، وأنزلت مجدافين إلى البحر وبدأت بالتجديف،..لم يكن ذلك السواد الذي رأيناه سوى قاربٍ!!، وصرخت قائلاً:

- إنه قارب،... من أين أتى يا ترى؟!.

قال العم سالم:

- سنعرف عندما نصل إليه.

واستيقظ الأصدقاء على صوت صراخي، وعلت الحماسة وجوههم حين أخبرتهم خبر القارب ونحن نقترب منه، وبدأ ألتان وطورغوت بالتجديف معي، حتى اقتربنا من القارب بسرعةٍ... كان مليئاً بالأغراض،وحين اقتربنا منه أكثر استطعنا أن نقرأ الكتابة الموجودة عليه... إنه كان قاربٌ يحمل اسم سفينتنا الغارقة.

سأل معمر في حيرةٍ:

هذا قارب سفينتنا،كيف وصل إلى هنا يا ترى؟

قال العم سالم:

- اهدؤوا يا أولاد سنفهم الآن.

لكن طورغوت وبييرو لم يستطيعا ضبط أعصابهما، فقفزا إلى القارب فور اقترابنا منه.

يا الله لم نصدق ما نرى!! برميلا ماء، وقِدران من اللحم المشوي، وخمسين معلباً، وكيساً كبيراً من الطحين، وفاصولياء جافة، وعلبة شوكولاتة كبيرة، وطناجر، وأطباق، وكؤوسٌ... إضافة إلى ثلاثة صناديق كبيرةٍ مغلقةٍ بإحكام.. تركنا فتح الصناديق المغلقة لوقتٍ آخر، وفتحنا برميل الماء وشربنا منه بشغف حتى ارتوينا، وأكلنا من الشوكولاتة حتى شبعنا، ورفعنا أيدينا إلى الله ونحن نحمده بين نظرات الاستغراب التي يرمقنا بها هانس وبيير، وكان الختام بتلاوة الفاتحة من العم سالم.. آمين، وسمعنا صوت هانس وبيير يرددان: آمين!.

قال العم سالم:

- أرأيتم يا أولاد كيف أن الله عز وجل أرسل لنا رِزْقَنا وَسَطَ المُحيط؟!.. يكفينا أن نلجأ إليه، ونطلب العون

منه متوكلين عليه، فإنه جل جلاله قادرٌ على كلِّ شيءٍ.

وسأل جنكيز:

- ترى من الذي وضع هذه الأشياء في القارب؟!.

بادرت وأنا أقول:

- أعتقد أن الربَّان وطاقمه وضعوا الطعام والصناديق في هذا القارب قبل مغادرة السفينة، ثم غادروا على متن قاربٍ آخر.

قال العم سالم:

- صحيح يا محمد، وأنا أيضاً فكرت بذلك!.

كان رجب يتناول الموضوع من زاويةٍ أخرى، إنه:

- لا أحد يأكل نصيب غيره!.

قال العم سالم:

- صدقت يا بني، لا أحد يأكل نصيب غيره.. إنهم قبل أن يفكروا بنا،سارعوا لتجهيز هذا القارب، وقفزوا على القارب الآخر،للهروب والنجاة بأنفسهم... ولكن ماذا حصل؟! لقد أراد الله العزيز أمراً آخر، فساق هذا القارب إلينا ليكون من نصيبنا،.. إنه لكل شيءٍ قدره

المقسوم في هذه الحياة لا يتعداه..

بعدها تكلم هانس وبيير مع العم سالم بالألمانية، وهز العم سالم رأسه موافقاً، ثم توجها نحو الصناديق لفتحها..

كانا لا يقومان بأيِّ عملٍ دون استشارة العمِّ سالم، وهذا دليلٌ على أنهما وجدا فيه القائدَ الجديرَ بالاستشارة... كانت شخصيته قويةً تفرض احترامها في كل مكان، وكان صادقاً ذكياً بعيد النظر،علاوةً على كونه ضابطاً متقاعداً يملك قدرةً كبيرةً على إدارة الآخرين.

لم يستطع هانس وبيير فتح تلك الصناديق المغلقة بإحكام، فأخرج العم سالم مطواته (سكينه) الكبيرة، ومدها إلى هانس.. شكره هانس، وأدخل طرف المطواة بمكان المسامير من الصندوق، وحك الخشب مراراً حتى تخلخل قليلاً، وحين رأى ما في الصندوق صاح قائلاً:

- عاش عاش،..

لقد وجد في الصندوق فأساً، وقدُّومين، وبراغي، ومنشار خشبٍ، ومسامير، ومطرقتين. واكتملت الفرحة عند اكتشاف خمس بنادق في الصندوق الثاني الطويل بعد

فتحه بسرعةٍ بسبب الأدوات التي وجدناها في الصندوق الأول.

كما عثرنا على كمية كبيرة من الذخيرة في القسم الأمامي للصندوق.. أما الصندوق الثالث فقد كان فيه مستلزمات الصيد. ثم تكلم العم سالم مع هانس و بيير، فسارعا إلى قطعة القماش الملفوفة حول كيس الطحين، ثم وجه الحديث إلينا وهو يقول:

- هيا ساعدوا هانس وبيير حتى نتخلص من أشعة الشمس الحارقة!.

حينها فهمنا ما الذي يريد فعله!..كان العم سالم يفكر بصنع خيمةٍ على القارب، فسارعنا إلى هانس وبيير نساعدهما، فقطعة القماش كانت كافية لصناعة خيمةٍ جيدةٍ، لكننا كنا بحاجةٍ إلى الأعمدة الطويلة لتثبيت الخيمة فوق رؤوسنا. ووجد طورغوت الحل، فقال:

- يمكننا شطر الأخشاب التي انتزعناها من الصناديق بالفأس، ثَمّ نُثبّتها مع بعضها بالمسامير، وبذلك نستطيع صناعة الدعامات اللازمة للخيمة.

كانت الفكرة مناسبةً، وبدأنا بتنفيذها على الفور، وبدا هانس خبيراً بالنجارة، فقام بتثبيت الأخشاب التي شطرها، وبعد برهةٍ كنا نستظل بظل الخيمة التي نشرناها فوق قاربنا!. وبذلك تخلصنا من أشعة الشمس الحارقة، وبدأنا التجديف بحماسٍ ومعنا قارب الطعام!.

رؤية البر

كانت سعادتنا عارمة لا توصف بعد أن تمكنا من سدِّ رمقنا وجوعنا، لكنَّ العم سالم اقترح علينا الاقتصاد في استهلاك الماء والطعام؛ لأننا لا نعلم كم نبقى في البحر قبل بلوغ بر الأمان، فوافقنا على رأيه بالإجماع.

تناوبنا على التجديف حتى المساء، وعند الغروب خلدنا إلى الراحة، وعندما حل الظلام؛ تبادلنا أطراف الحديث إلى أن داعب النعاس أعيننا،.. أما هانس وبيير فقد كانا يستمعان إلى أحاديثنا، ويتعلمان بعض الكلمات العربية.

مضى علينا في البحر يومان، وفي عصر اليوم التالي لاح لنا من بعيدٍ لونٌ رماديٌّ، وتحركك الحماس والأمل في

نفوسنا ونحن نرجو أن يكون ما نراه هو البر!.

واعتنقنا المجاديف، وبدأنا نجدِّفُ بقوةٍ، حتى بدا ما توقعناه صحيحاً، وبدأت اليابسة تظهر شيئاً فشيئاً، لكننا لم نتمكن من الوصول إليها إلا عند حلول العصر.

بدت اليابسة مغطاةً بصخورٍ حادةٍ، يظهر من جهتها الأخرى خليجٌ جميلٌ، وعلى مقربةٍ من الساحل غابةٌ خضراءُ تفترش الجزيرة على مد البصر.

وبحماس الفرحة التي تغمرنا وجهنا قاربنا نحو الخليج بقوةٍ، وكلما اقتربنا ظهر الماء شفافاً نظيفاً حتى أننا كنا نميز الأسماك التي تسبح في قاع البحر.

شعرنا وكأننا في نزهةٍ، وصلنا إلى الساحل خلال فترةٍ قصيرةٍ، وطُمِرَتْ مقدمة القارب في الرَّمْلِ... قفزنا إلى الساحل، وبدأنا نجري على الرِّمال ونحن في قمة السعادة، وتبعنا العم سالم وبيار وهانس يسيرون على رمال شاطئ.. كانت المرة الأولى التي نحرك فيها أقدامنا منذ أربعة أيام.

كنا فرحين لأننا نجونا من البحر الممتد بلا نهايةٍ، فاليابسة

مختلفةٌ تماماً، واستقرارك على الأرض واقفاً على قدميك بعيداً عن اضطراب الأمواج يمنحك الشعور بالأمان، فمنذ قليل كنا نودع صور الأمواج الهائلة المُخيفة للبحر الغدّار، وهي ترتفع تارةً لتصبح أعلى من المآذن ورؤوس الجبال، وتنخفض تارةً فتغدو في قاع بئرٍ عميقٍ.

وهنا في الجزيرة بدأنا نشعر بالأمان، ولم نعد قلقين من مستقبلٍ مجهولٍ، ففي هذه الغابة الممتدة سنجد بإذن الله ما يكفينا من الطعام والشراب.

ركضنا حتى شعرنا بالتعب، وارتفع صوت العم سالم يناديا:

- هيا يا أولاد! سيكون لديكم وقت طويل للعب، فلنُفرغ القوارب، ولنبحث لنا عن مكانٍ للنوم قبل أن يحِلَّ الظلام.

توجهنا بسرعةٍ إلى القوارب، وأنزلنا ما بها من أغراض إلى اليابسة.

قال العم سالم:

- سيبقى هانس وجنكيز وألتان ورجب هنا، ويأتي معي

محمد وبيير لنبحث عن مكان للنوم، أما طورغوت ومعمر سيقفان في النقطة التي تبدأ عندها الغابة، لإبلاغكم في حال وجود أي خطر. والآن لنُخرج البنادق من الصندوق، وسأحمل أنا وهانس وبيير ثلاث بنادق.

- عم سالم، أنا أيضاً أعرف كيفية استخدام البندقية.

- حقاً؟! هذا جيد!. فكلما كان عدد من يستخدم البنادق أكبر كلما كان أفضل، فنحن في مكانٍ نجهله، ولا نعلم المفاجآت التي تنتظرنا، وعلينا توخي الحذر.

أخذنا البنادق وملأناها بالذخيرة،.. كان العم سالم وهانس وبيير يتابعون كيفية تلَقِّيمُ البندقية لمعرفة ما إن كنت فعلاً قادراً على استخدام البندقية... وعلمت أني نجحت من كلمات هانس بعربيته الركيكة:

- جميل.. جميل!.

وربَّتَ العم سالم على كتفي دون أن يتكلم، وتنفست الصعداء لأني نجحت في الامتحان. ثم تحركنا وفق أوامر العم سالم، ودخلنا الغابة نحمل البنادق، واحتل طورغوت ومعمر مكانهما عند طرف الغابة. وما لبثنا أن

وجدنا مكاناً آمناً قريباً من الماء يمكننا قضاء الليلة فيه، فأخبرنا أصدقاءنا، وحملنا أمتعتنا إلى المكان، وقمنا بتجهيز مكان النوم، فقال العم سالم:

- غداً بإذن الله سيكون أول عمل لنا تقصي المنطقة التي نحن فيها.

في صباح اليوم التالي انطلقنا أنا والعم سالم ورجب لاكتشاف المنطقة.

نحن في جزيرةٍ مجهولةٍ

خلال جولتنا كان كل ما وجدناه في الغابة ممتعاً.. فقد وجدنا أولاً جوز الهند، ثم شجرة خبزٍ. وراودني سؤال عن عدد الأشياء الغامضة التي سنصادفها أيضاً في هذه الجزيرة!.

ورفع العم سالم رأسه وهو يشير إلى مكانٍ مرتفعٍ:

- هيا يا أولاد لنصعد تلك التلة، ونحاول استطلاع ما حولنا من هناك.

كانت تلك التلة أعلى مكان حولنا.

بعد جهدٍ استطعنا الوصول إلى القمة، فكانت بالفعل أعلى قمةٍ في المنطقة. وظهرت أمامنا ثلاثة أو أربعة قمم منخفضة ممتدة أمامنا، فعبّر رجب عن رأيه قائلاً:

- الحمد لله أننا صعدنا على هذه القمة.

وافق العم سالم على قول رجب، وهو يمسح عرقه وينظر حوله قائلاً:

- نعم بالفعل. ثم سَألنا: انظروا حولكم يا أبنائي ماذا ترون؟!.

كان البحر يحيط بنا من كل جانب على مد أبصارنا، وبدا أننا على جزيرةٍ منقطعةٍ تتشابك فيها الأشجار الكثيفة، وتنتشر المروج الخضراء مدَّ الأفق تحت أقدامنا.

وضعنا أيدينا على جباهنا نحاول النظر إلى بعيدٍ، فبدا لنا شيءٌ يلوحُ في الأفق بخطٍّ رماديٍّ كأنه اليابسةُ.

بادرتُ أقول:

- نحن في جزيرةٍ ليس فيها أثرٌ لإنسان، وذلك الخط البعيد لا بد أنه جزيرة أخرى.

وافقني رجب، وأضاف:

- نعم!. تُرى هل علق آباءنا في جزيرةٍ كهذه أيضاً؟، ماذا تقول يا عم سالم؟ هل سننجو من هذه الجزيرة؟!.

قلَّبَ العم سالم ناظريه في الأفق فترةً، ثم أجاب قائلاً:

- نعم يبدو أننا وصلنا إلى جزيرة مجهولة، فسبحان الله الذي قدر لنا أن نصل إلى هنا، لا بُدَّ لنا أن نتذكر الأمواج العاتية، والبحر الغادر الذي ابتلع سفينتنا، ونحمد الله على أننا وصلنا إلى مثل هذه الجزيرة.أمّا أننا سننجو من هذه الجزيرة أم لا؟! فهذا أمرٌ لا يعلمه إلا الله يا أبنائي، لكن علينا أن نبذل قصارى جهدنا للنجاة، فالله لا يحبُّ المتواكلين من عباده.

قال رجب:

- سنعمل بالتأكيد ياعم، نحمد الله أنّنا لسنا وحدنا، بل مع أصدقائنا، فلو كان الوحد كنا وحده هنا لكان الأمر مخيفاً أكثر.

تابعت قائلاً:

- كان من الممكن أيضاً أن يغرق بعضنا ويموت، فها نحن والحمد لله لم نُصَب بأذىً.

ثمّ جال العم سالم ببصره مرة أخرى، وقال وهو يتناول بندقيته من الأرض:

- هيا بنا، نعد إلى أصدقائنا.

كان النزول من القمة بالطبع أسهل من الصعود، وعندما اقتربنا من شجرة جوز الهند التي كنا قد استرحنا تحتها؛ صاح رجب قائلاً:

- انظروا، انظروا!

فنظرنا بحذر إلى الجهة التي أشار إليها.. كان هناك نوعٌ من الحيوانات لها أذيال، تتسلق وتتأرجح بين أغصان أشجار جوز الهند مطلقة صيحاتٍ غريبةً، فقال العم سالم:

إنها القردة!. هيا يا أولاد تعالوا فلن نضطر لتسلق الشجرة من أجل جمع ثمار جوز الهند، وحين رأى نظرات الاستغراب باديةً علينا ضحك وأضاف قائلاً:

- سترون كيف ذلك الآن!.

وصلنا إلى أسفل الشجرة فأمسك بيده قشور جوز الهند التي كنا قد رميناها في طريق ذهابنا، وقال لنا:

- احموا رؤوسكم، سيهطل عليكم الآن وابلٌ من ثمار جوز الهند!.

ثم بدأ يرمي القشور باتجاه الشجرة، حتى دبَّت ضجةٌ كبيرةٌ بين القردة التي كانت تحدِّق فينا!، وما لبثت القردة حتى بدأت ترمينا بثمار جوز الهند التي تقطفها من الشجرة، فوضعنا أيدينا على رؤوسنا لنحتمي من ذاك الوابل، وكِدنا نموت من الضحك أنا ورجب.

وبدأ الهدوء يعود إليها تدريجياً، وتنخفض كمية ثمار جوز الهند المتساقط علينا من الشجرة، قال العم سالم:

- هيا احملوا ما استطعتم، وسنأتي فيما بعد ونجمع الباقي.

جمعنا ما يكفينا من الثمار، وعدنا إلى أصدقائنا عند حلول المساء، فقابلونا بفرحٍ، وأخبرناهم بما رأينا، وراق لمعمر وألتان وجنكيز الحديث حول القردة وطريقة رميها للثمار،فكانوا يسألوننا عنها بشغفٍ حتى مللنا من أسئلتهم، وقلنا لهم:

- سنذهب غداًإلى هناك، وسترون القردة بأعينكم!.

صُنع الملح والسكر

حين أنهينا حديثنا سأل العم سالم هانس وبيير وباقي الأصدقاء عمّا فعلوه أثناء غيابنا، فقال ألتان للآخرين والنظرات الماكرة تلمع في عينيه:

- ما رأيكم هل نُريهم؟

قال الآخرون:

- كنا نخفي المفاجأة حتى الطعام، ولكنك أخبرتهم الآن، فتفضل!.

أخذنا ألتان إلى مكان جهزوا فيه رفاً، ووضعوا عليه القدور والأطباق، وحين رأى العم سالم ذلك سأل بفرحٍ: (ما هذا؟ من الذي صنع هذا الرف؟)، فأشار طورغوت بيده إلى هانس.

أظهر العم سالم تقديره وهو يقول:

- أحسنت يا هانس! إذاً أنت تفهم بالنجارة أيضاً.

وعلى الرغم من أن كلمات العم سالم كانت بالعربية؛ فقد بدا على هانس أنه قد فهمها، فوجهه الأحمر لم يكن يخفي حياءه، وقال كلمات بالألمانية، فكأنه كان يريد أن يقول:

- نعم أستطيع أن أعمل مثل هذه الأشياء.

بعدها أحضر جنكيز قِدراً صغيراً وفتح غطاءه، فكان مليئاً بشيء شديد البياض. فسأل العم سالم بحماس:

- ملح!... أين وجدتم هذا يا أولاد؟

أجاب جنكيز:

- بينما كنا نتجول على ساحل البحر رأينا كومة بيضاء بين الصخور، وبدا لنا أنها ملحٌ، حتى إذا تذوقناها؛

تأكدنا أنها كذلك، فأخبرنا الأصدقاء، ولأنه كان وسخاً جداً نوينا أن نتركه كما هو، ولكن بيير تناول قدراً بيده، وأخذ من الملح وأذابه في الماء العذب، وبعد أن صفّاه بقميص طورغوت عرّضه للهواء وتركه ليجف، وخلال فترة قصيرة تحت الشمس الحارقة خرج هذا الملح النقي.

قال العم سالم بسرور:

- أحسنتم يا أبنائي لقد وجدتم أهم مادة نحتاجها لطعامنا، فنحن بأمس الحاجة للملح طوال فترة إقامتنا هنا.

وبادر طورغوت مسرعاً:

- ليس هذا فقط يا عم، لقد وجدنا شيئاً آخر!.

- ماذا وجدتم؟

-انظروا لنرى هل ستستطيعون أن تعرفوا ما هذا؟

واتجه إلى كومة قصب، وأحضر منها واحدة، ومد الطرف المقصوص من القصبة إلى العم سالم، وسأله قائلاً:

- تذوق هذه يا عم سالم، حتى نرى، هل ستذكرك بشيء ما!.

تذوق العم سالم طرف القصب الممدود إليه، ثم توقف قليلاً قبل أن يصيح قائلاً:

- قصب السكر! أين وجدتموه يا أحبائي؟ هيا أخبروني، أين وجدتموه؟!.

قال معمر بفرح:

- وجدناه مصادفةً، فبينما كنا نتجول مع طورغوت للتعرف على ما حولنا؛وجدنا أنفسنا وسط حقلٍ مليءٍ بالقصب المتشابك، فقطعت إحدى القصبات بُغية استعمالها كعصاً، وبعد تجوُّلِنا الطويل؛ شعرنا بالجوع، فعُدنا إلى المخيم، وبقيت العصا في يدي، فأمعن هانس النظر إلى العصا، ثم قفز من مكانه وهو يصرخ، ويقول لي شيئاً لم أفهمه، فأخذ القصبة وقطعها من منتصفها بالقدّوم، فسال شيءٌ من القسم المقطوع من القصبة، ومدها إليّ مشيراً أن أتذوق، فتذوقتها، وكانت حلوةً، وتذوقها باقي الأصدقاء فصرخوا قائلين:

(سكر!..سكر!). وهو أيضاً كان يصرخ قائلاً:

(سوكر..سوكر!).. حينها لمعت الفكرة في أذهاننا، لا بدّ

أن هذا هو قصب السكر الذي سمعنا عنه، ولم نره أبداً.

ضحك العم سالم، وقال:

- انظروا يا أبنائي كيف منَّ الله علينا إذ سخّر لنا ملحاً وسكراً لنُحسّن به طعامنا، ومن يدري ماذا سنجد أيضاً، فيجب علينا العمل لتأمين كل ما يلزمنا، وكأننا سنقضي حياتنا في هذه الجزيرة، ثم يخلق الله ما لا نعلم .. والآن علينا أن نتقاسم الأعمال.

على أحدنا أن يصيد السمك لنأكل سمكاً طازجاً في بعض الأحيان، فهناك سمك كثير كما رأيتم عندما كنا نقترب من الجزيرة، وآخر يصبح صياداً، ويأتي لنا بلحم طرائده.

رفع جنكيز يده قائلاً:

- أنا أصيد السمك يا عم سالم.

أجابه العم سالم:

- حسناً يا بني، إذاً ستتكفل أنت بإحضار حاجتنا من السمك.

وبعد تقاسم الأعمال أصبح لكل منا مهامه الخاصة،

هانس سيقوم بأعمال النجارة، ويساعده بيير، وأنا سأكون الصياد، وسيقوم كل من ألتان ورجب وطورغوت ومعمر بالزراعة تحت إشراف العم سالم. وسنتعاون جميعاً بأعمال النجارة والزراعة إن اقتضى الأمر.

قضينا تلك الليلة ونحن نتحدث عن الأعمال التي سنقوم بها، وبعد صلاة العشاء خلدنا إلى النوم على الفرش التي جهزناها من أوراق الشجر.

أيامنا في الجزيرة

في صبيحة اليوم التالي باشر كل واحد منا عملَه كما اتفقنا،.. ذهبت مع جنكيز إلى مكان الصخور، وكان يحمل معه عدّة الصيد، وتسلقنا نحوها، وألقى جنكيز صنارته إلى البحر الهادئ،.. كان الجو جميلاً، والسماء زرقاء صافية، وأشعة الشمس الذهبية تعكس بريقها على سطح البحر الأزرق الرقراق، والهواء النقي يملأ نفوسنا نشوةً وسروراً. أما المياه فكانت نقيةً نستطيع أن نرى الأسماك فيها وهي تسبح. قال جنكيز:

- انظر! سأصيد لكم اليوم أسماكاً كثيرةً، وستصابون

بالدهشة حين ترونها.

- هيا أرنا مهارتك، ودع الصنارة تتكلم... انظر، انظر.. سمكةٌ كبيرةٌ تقترب من الطُعم.. توخَ الحذر يا جنكيز!.

رأى جنكيز السمكة أيضاً، وبدأ يحرك الطعم بهدوء للفت انتباهها، فبدأت السمكة تدور حول الطعم، لكنها ابتعدت ضاربة الطعم بذيلها، وبعد برهة من الزمن عادت ومعها سمكتان. صاح جنكيز:

- ها قد جاءت ومعها صديقتاها.

قلت:

- نعم أرى ذلك، ولكن لا تصرخ لأنك تُخيف السمكة!.

عندها اقتربت سمكةٌ كبيرةٌ من الطعم، وأقبلت عليه بنَهم، والتقمته،.. وعلا صوت جنكيز وهو يسحب الصنارة:

- أمسكت بها، أمسكت بها!

كانت سمكةً كبيرةً حقاً، وحجمها بحجم سمكة البونيتو.

شجعته قائلاً:

- هيا هيا يا جنكيز.

فمد جنكيز يده وأمسك بها، وبمهارة صياد متمرس ألقاها في القدر الكبير المملوء بالماء. قلت له وأنا أنظر إلى السمكة:

- أحسنت يا جنكيز! لقدحققت ما قلته، يا لها من سمكة كبيرة!...

شعر جنكيز بفرح كبير لإمساكه بهذه السمكة وقال:

- وهل هذا أمر كبير؟! بإذن الله سأصطاد أسماكاً أخرى، وسأُشبعكم سمكاً، ثم رمى الصنارة إلى الماء ثانية.

تركته وأنا أتمنى له أن يصطاد أسماكاً كما يشتهي، وتابعت طريقي أبحث عن طريدة أصطادها، انحدرت من الصخور، وسرت في طريق البحر حتى دخلت الغابة. وكان العم سالم قد نبهني ألا أبتعد عن المخيم كثيراً، ولا أقتل أي حيوان من غير ضرورة.. وأنا بدوري كنت شديد الحرص على تنفيذ ما طلبه مني.

كان في الغابة أشجار طويلة ذات جذوع عريضة جداً، والأرض تكسوها أعشاب شديدة الخضرة، تتفرق بينها

أزهار بنفسجية وحمراء وبيضاء، تبدو من حين لآخر مطلقة رائحتها الجميلة، ورأيت شجرة تينٍ كبيرةٍ وأناناس، كان أبي يجلب لنا من هذه الفاكهة بكثرة حين يعود من جولاته البحرية؛ لذلك كنت أعرف هذه الأنواع جيداً، فاقتطفت منها وأكلتها بشهية.

ثم وصلت إلى حقل رأيت فيه حيوانات تشبه الغزلان، فصوبت بندقيتي، وأطلقت النار على واحدة منها، لكن رصاصتي كانت عاليةً، وأصابت ساق شجرةٍ على ارتفاع مترين عن الأرض، فكان لا بد للغزال أن يقفز مترين حتى تصيبه الطلقة. فهل سأعود خاوي الوفاض؟! لقد اصطاد جنكيز سمكةً كبيرةً، فإن اصطاد سمكةً أو سمكتين نكون قد أمنّا غداءنا وعشاءنا.

تجولت قليلاً، وحين اقتربت من النهر الذي مررنا به من قبل رأيت طيوراً كبيرة جداً هناك، فنزلت على ركبتي ووضعت الطيور داخل نطاق مرماي وأطلقت النّار، كنت محظوظاً؛ لأني أصبت إحدى الطيور،.. ارتفعت قليلاً ثم عادت لتسقط على الأرض،.. كان يشبه طائر الإوز.

وعلمت فيما بعد أنه إِوَزٌّ بَرِّيٌّ.

قررت العودة إلى أصدقائي، وبدأت السير باتجاه المخيم من طريق غير الطريق الذي أتيت منه. في طريق عودتي لفتت نظري فاكهةٌ شديدةُ الصفرة على إحدى الأشجار، وحين اقتربت منها تبيّن لي أنها ليمون، فرحت كثيراً لأنني مولَعٌ بالليمونادة، كما أن السمك يصبح أَلَذَّ بعصرة ليمون. اكتشفت المكان، فبدا وكأنه سوق خضار وفاكهة يحيط بنا من كل الجهات، نحصل عليها طازجةً وبالمجان، كل ما يلزمنا هو أن نَمُدَّ أيدينا للحصول عليها... حين وصلت إلى مكان المخيم أدركت أن ما اصطدته كان هامّاً، لأنّ جنكيز لم يستطع أن يصطاد غير تلك السمكة التي اصطدناها سويةً، والتي لا تكفينا،.. فرح الجميع بالإوزة البرية التي اصطدتها، وسارع بيير لتجهيز الطعام، وأنقذنا من الجوع الذي بدأ يطلق صفاراته في معدتنا.

وفرح العم سالم وألتان وطورغوت ومعمر ورجب حين عادوا من أعمال الزراعة، ووجدوا الطعام مطبوخاً جاهزاً،

وتوجه العم سالم إلى حيث وضعنا قدر اللحم المُقدد الذي وجدناه في القارب، ونظر إلى اللحم بتمعن، ثم تحدث مع هانس وبيير. ورأينا هانس وبيير يهزان رأسيهما بالنفي.

بدت علامات الارتياح على وجه العم سالم، بعدها بيّن لنا ما دار بينه وبينهم قائلاً:

– لقد كنت أشعر بالريبة بشأن اللحم في القدرين، كنت أتساءل دائماً هل يمكن أن يكون لحم خنزير؟ فأخبرني هانس وبيير بأنه ليس لحم خنزير، بل لحم عجل، ففرحت لذلك كثيراً. يمكنكم الآن أن تأكلوا من هذا اللحم دون خوف.

انتظرنا قرابة الساعة حتى أصبح الطعام جاهزاً. وبدأنا بالسمكة المشوية، وحين أخرجت حبات الليمون التي خبأتها مفاجأةً لأصدقائي؛ أصابتهم الدهشة، وفرحوا بها كثيراً، وقضينا على السمكة سريعاً، ولم ينل الواحد منا سوى لقمة أو لقمتين، من ثَم أكلنا الإوزة البرية التي كانت كفيلة بإشباعنا جميعاً.

الانتقال

حين اجتمعنا في تلك الليلة قال لنا العم سالم: إن مركز المخيم جيد حالياً، لكنه إذا هطلت الأمطار في الشتاء فسنكون عُرضةً للغرق في المياه، ولذلك لا بد لنا أن نجد مكاناً أفضل من هنا. شاركه هانس وبيير الرأي. وخلدنا إلى النوم بعد أن قررنا أن نبحث في اليوم التالي عن مكانٍ آخر نستطيع الاستقرار فيه.

وفي اليوم التالي عند شروق الشمس؛ ذهب العم سالم برفقة هانس وبيير لتعيين مكان المخيم الجديد، وأخذوا

أسلحتهم معهم، ولأنني الأكبر بين الأصدقاء طلب مني العم سالم أن أراقبهم.

نزلنا إلى ساحل البحر، وقمنا بمسابقات في السباحة والغطس. وكان البحر الرقراق رائعاً لدرجة لا توصف.

تصارعنا تحت أشعة الشمس على الرمال وتسابقنا في الجري. ثم قمنا بتخريب القصر الرملي الذي بناه معمر لإغاظته، فجرى وراءنا،.. وعُدنا إلى البحر، وبدأنا نسبح من جديد، ونلعب بالمياه.

كان قاع البحر يبدو رائعاً، وكنا نصاب بالدهشة حين نغوص في الماء، ونأخذ تلك الحجارة المتلألئة التي تبدو لنا كالذهب، ثم نكتشف أنها أحجار عادية.

استمتعنا في البحر إلى وقت الظهر، وحين شعرنا بالجوع انطلقنا إلى المخيم، وأكلنا من اللحم المشوي. ثم تناولت بندقيتي وقد نويت الانطلاق إلى الصيد من جديد.

رافقني أصدقائي، فانطلقنا حتى دخلنا الغابة. وفي منطقةٍ كثيفةٍ ملتفةِ الأشجار صاح ألتان قائلاً:

- انظروا انظروا! إنها خراف.

كانت الخراف تبدو أضخم وأكثر وحشيةً من الخراف التي نعرفها، فقال طورغوت:

- هذه خراف برية كنت قد رأيت صورها في كتاب علم الأحياء. أتعلمون؟ إنه يمكننا أن نمسك بها ونحلبها؟!.

كانت الرياح تهب من الجهة المعاكسة، فلم تصل رائحتنا للخراف البرية، ولم يرونا أيضاً، لذلك كانوا يرعون بهدوء، وبدأت تتراكض عندما أحست بوجودنا، فلاحقناها بعض الساعة، وعُدنا بحِمْلَيْن صغيرين، حملهما طورغوت وألتان، وتوجهنا بهما إلى الخيمة، وهناك قدمنا لهما الماء، واستمتعنا بثغائهما الجميل.

قبيل المغرب سمعنا ثُغاء خروف، وكأنه يرد على ثغاء الحملين لدينا... كان الصوت قريباً جداً، وحين أمعنا النظر وجدنا خروفاً ينظر إلينا بخوفٍ وترقبٍ، فاقتربنا منه بهدوء، ونحن نحاول الإمساك به، لكنه كان يبتعد بعناد تاركاً مسافة بيننا وبينه. وحين ازداد ثغاء الحملين استسلم، وتخلى عن عناده، فاستطعنا الإمساك به، وأخذناه إلى مكانهما.... كان الخروف الأم، وكان مشهد

لقاء الأم بصغيريها مؤثراً، وبدأ الحملان فوراً يرضعان الحليب من أمهما.

حين عاد العم سالم وبيير وهانس كنا على وشك البدء بالصلاة، فتوضأ العم سالم بسرعةٍ، وشرع في الصلاة، وبعدها جلسنا نتحدث عما قمنا به. ورأينا الخروفين وهما يقفزان أمام أمهما! وتخيلوا كم كانت فرحتها.

ماذا حدث مع العم سالم وهانس وبيير

خلال غيابهم عنا قام العم سالم وهانس وبيير بأمورٍ كثيرةٍ. وأخذ العم سالم يخبرنا بما فعلوه:

- حين تركتكم هنا بقيت مشغولاً بكم، كنت خائفاً من أن تصابوا بمكروه، وكلما توغلنا في الغابة ازدادت مخاوفي. وبينما أسير في طريقي حدّثت نفسي: إنه يجب علي رمي هذه الأوهام جانباً، لأن هناك مهام كثيرة علينا القيام بها. وحين وصلنا إلى النهر الذي مررنا به من قبل مع محمد ورجب؛ اقترحت أن نقيم عليه جسراً باستخدام شجرة كبيرة موجودة هناك، من الواضح أنها سقطت بسبب صاعقة أصابتها. قام هانس خلال

فترة قصيرة بإزالة فروع الشجرة بالفأس التي يمكن استخدامها. وبصعوبة بالغة وضعنا نحن الثلاثة ساق الشجرة على ضفتي النهر.

بنينا جسراً جيداً، وصار بإمكاننا المرور بسهولة دون بلل، ولكنّ بناء هذا الجسر استغرق ساعة ونصفاً من وقتنا،.. بعدها عاودنا المسير، فرأينا ما لم نره في حياتنا من الأشجار الضخمة، وأنواع مختلفة من النباتات والأحراش. واقترح هانس أن نبني بيتنا فوق شجرةٍ كبيرةٍ، لكن الماء لم يكن متوفراً بالقرب من تلك الشجرة، والماء حاجة أساسية لجميع الأحياء، لذلك وجدنا أنه من الأفضل أن نبني بيتنا في مكان قريب من الماء...

وتابعنا المسير حتى وصلنا منطقة مكسوة بأعشاب شديدة الخضرة، ينبثق منها نبع ماء نقي صاف كالبلور، ولاحظنا وجود مكان مناسب جداً وقريب في منطقة مرتفعة بين الأشجار، واتفقنا على أنها أنسب مكان لبناء بيتنا، فماء النبع قريب، نزرع ما نشاء بكل سهولة.

كما أنها بارتفاعها؛ كانت منطقة آمنة لن تصل إليها مياه

الأمطار والسيول، ونستطيع أن نحتمي فيها بسهولة من أي خطر محتمل لا قدر الله.

وأنا هنا خلال وجودنا في هذا المكان؛ في حالة ترقب دائم، فلا أحد يعرف ما تخبئه الأقدار لنا... ثم إني أسمع صوت قرع طبولٍ يأتي من بعيدٍ في بعض الليالي، فمن يدري ربما يعيش أشخاص في الجزيرة المجاورة سكانٌ محليون؟!. لذلك يجب علينا أن نتوخى الحذر إزاء أي خطرٍ محتملٍ، فربما لن يعجبهم أن يسكن معهم أحد في جزيرتهم!.

حين سمع ألتان ما قاله العم سالم وقف يقول متوتراً:

- وأنا أيضا كأني سمعت ليلة البارحة أصواتاً تشبه قرع الطبول.

رد العم سالم:

- لا تخف، لا تخف، إن الله معنا، ولا يليق بشباب مثلكم أن يخافوا، ربما توهمنا أننا سمعنا تلك الأصوات. كونوا حذرين يقظين فحسب. وعلينا أن نُبعد قواربنا عن الساحل ونخبئها خلف الصخور حتى لا يراها أحد.

وأضفت قائلاً:

- ويجب ألا نبتعد عن بعضنا.

قال العم سالم:

- جميلةٌ هذه الفكرة، يجب ألا نبتعد عن بعضنا أبداً. ثم لا بد لنا من ترتيب المناوبة على الحراسة، ونراقب الجزيرة المجاورة من التلة هناك، ويحذرنا من أي خطر قادم.

وهنا قدم جنكيز مبادرة أخرى مختلفة:

- لم لا نملأ قواربنا بالطعام ونبحر يا عم سالم؟!.

- هذا غير ممكن الآن يا بني، أتدري لماذا؟! . لأنه من غير الممكن أن نبحر في المحيط بمثل هذا القارب! ألا تذكر كيف كانت الأمواج تلعب بسفينتنا الكبيرة وكأنها قشرة بندق؟!.. وفي النهاية شطرتها إلى نصفين، وسحبتها إلى أعماق البحر؟!..

وهنا صاح معمر بحماس قائلاً:

- إذاً لم لا نبني سفينةً شراعيةً كبيرةً؟!..

- نعم، يمكننا ذلك، فنحن نملك فأساً وقدوماً ومنشرة

خشب، وبالتعاون نستطيع بناء سفينتنا.

وأضفت:

- لكن يجب أن نبني هذه السفينة في مكانٍ خفيٍّ حتى لا يراه أحد من الجزيرة المجاورة.

العم سالم:

- جميل!... هذه أيضاً فكرةٌ رائعةٌ. ولكن يجب علينا قبل كل شيء بناء بيتنا والاستقرار، ثم بعد ذلك نبدأ ببناء السفينة بإذن الله. وإياكم أن تظنوا أن بناء السفينة سيتم بسرعةٍ، فربما يستغرق ثلاث سنوات في تقديري.

صفقنا بأيدنا ونحن نقول:

- وليكن! وليكن! المهم أن يصبح عندنا سفينة!..

بناء بيتنا الجديد

كان أول ما قمنا به في اليوم التالي بعد صلاة الفجر؛ إخفاء القوارب في مكانٍ مناسبٍ بين الصخور، يمكننا إخراجها بسهولةٍ، واستعمالها عند الحاجة.

خبأنا القوارب، وأخذنا منها أغراضنا، وانطلقنا إلى مكان بناء البيت كما قرر العم سالم وبيير وهانس. ونحن أيضاً أعجبنا ذلك المكان، فقد كان رائعاً جداً، وشربنا من مياه نبعه النقيِّ حتى ارتوينا.

كانت الصخور المتوافرة في المكان تساعدنا في بناء بيتنا العالي، اجتمعنا أنا والعم سالم وهانس وتحدثنا عن بناء

البيت، واتفقنا على أن نقوم بإسناد ظهر البيت على الصخور، وبذلك سيكون جزء من جدران البيت من الصخر، فنستفيد من هذه الجدران الطبيعية، ونبني فقط حائطين وسقفاً.

66 قبل أن نشرع بالعمل جعلنا معمر ـ وهو أصغرنا ـ يصعد إلى مكانٍ عالٍ للمراقبة، وأعطيناه قليلاً من الطعام والماء، وبدأ بمهمته تحت ظل شجرةٍ محتمياً بها من أشعة الشمس الحارقة.

بدأنا بالعمل، فقطعنا المئات من الأغصان العريضة الطويلة التي سنضمها إلى بعضها لتشكيل السقف والجدران، بمساعدة المنشار والفأس والقدوم. كان بعضنا يقطع الأغصان من الأشجار، والقسم الآخر يجرها إلى مكان البيت الذي سنبنيه. كان الجميع يعمل...

اكتمل بناء البيت خلال أسبوع، وفتحنا نافذتين في الجدارين اللذين بنيناهما؛ لنستقبل منهما أشعة الشمس، وقمنا ببناء أسرّة من طابقين في البيت؛ لتأمين مكان نومنا. وقام هانس بصنع رف لنضع عليه أطباقنا،

إضافةً إلى طاولةٍ كبيرةٍ.

وقمنا بزراعة الأرض الممتدة أمام البيت. وكنا أنا وألتان نؤمن ما نحتاجه من الطعام من الصيد، ومن النادر أن نعود بدون صيد،.. نصيد الطيور والأرانب والخراف البرية.

أمسكنا بمساعدة العم سالم بثلاثة خراف وماعزين بريين، وبنينا لها حظيرةً، اعتادت علينا مع الوقت، وأصبح معمر يرعاها بسلاسة وسرور.

في الصباح نشرب الحليب اللذيذ الذي نحلبه من الماعز، ونُحلّيه بالسكر المستخرج من القصب، ونأكل من الجبن والزبدة التي نصنعها من الحليب.

الاكتشافات الجديدة تثيرنا

بدأنا نجد مصادر رزقٍ جديدةً، فالله سبحانه يُدهشنا دائماً بعطائه المتجدد لمن يعمل، ويستخدم عقله.. ففي إحدى ساعات استراحتنا، وأثناء تجولنا لاكتشاف الجزيرة، رأينا مجموعة أشجارٍ مليئةٍ بثمارٍ صغيرةٍ، وحين اقتربنا منها لمعت عيون العم سالم من الفرح وقال:

- بشرى يا أولاد، بعد الآن لن نكتفي بضوء القمر ليلاً.

نظرنا إليه بفضولٍ وهو يكمل:

- إن هذه الشجرة التي ترونها هي شجرة الشمع، نستطيع الاستفادة منها لنصنع عيدان شمع لنا. هيا بنا الآن لنجمع الشمع...

لا يمكننا أن نقف مكتوفي الأيدي بعد سماع هذه

الكلمات، فبدأنا العمل جميعاً، وجمعنا الكثير من الشمع خلال فترة قصيرة.

حين عدنا إلى البيت وضع العم سالم وهانس الشمع في قدر على النّار حتى الغليان، وجهز بيير من أطراف القماش خيوطاً لتكون فتائل للشمع المذاب، فأصبحت الشموع جاهزة، وأضاءت بعدها لياليا.

بعد أيام اكتشفنا اكتشافاً آخر مهماً، فبينما كنا نتجول في الغابة لفت نظر العم سالم أوراقٌ مسطحةٌ وطويلةٌ كالسيفِ، وحين تفحصها صاح يقول:

- كتان! كتان!.

سأله جنكيز بفضول:

- وماذا يفيدنا الكتان؟!.

ضحك العم سالم، وأجابه قائلاً:

- آه يا أولاد، وما هو الشيء الذي لا يفيدنا فيه هذا الكتان؟!!.. ألا ترون أن ملابسنا بدأت تهترئ، وسوف تتمزق أثناء استحمامنا خلال فترة قصيرة. سنصنع ملابسنا من الكتان، وليس هذا فقط،.. فبالكتان نستطيع

أن نصنع شراعاً لسفينتنا، وسأتكلم بهذا الموضوع مع هانس وبيير... هيا بنا الآن لنقطع ما نقدر على حمله، ونأخذه إلى بيتنا.

عدنا إلى البيت ونحن نحمل أكواماً كبيرة، ثم أرسل العم سالم الآخرين لقطع أوراق الكتان أيضاً. فأصبح عندنا في البستان كومةً كبيرةً من الكتان وضعناها في حفرةٍ، وأمرَنا العم سالم بحفرها تحت نبع الماء بقليل، ثم غمرناها بالماء، وأمرَنا أن نضع أحجاراً كبيرة على الأوراق حتى لا تطفو على سطح الماء، وبقي الكتان هناك عشرين يوماً...

مضى على أوراق الكتان في الماء عشرين يوماً، فقال العم سالم:

- يكفيها هذا الوقت.

وأمرنا أن نخرجها من الماء، ونضعها تحت الشمس حتى تجف. وطلب من هانس أن يصنع مضرباً يهشم به أوراق الكتان، و(مندفاً) للكتان يفصل به الألياف، ثم طلب منا أن نضرب الكتان بالدور، لأن هذا العمل وكأننا نلعب، كنا نتخاطف المضرب، وكان العم سالم يقوم بتحويل

الألياف المستخرجة من الكتان إلى خيوط رفيعة.
وبدأ العم سالم ينسج هذه الخيوط في آلة الغزل التي صنعها هانس، وجنكيز ساعده الأيمن في ذلك العمل.
بعد فترة من الزمن أصبح لدينا أقمشة من الكتان، صنعنا منها ما يكفينا من الملابس، ثم بدأنا بصنع الأشرعة، ومضت علينا ليالٍ عديدة ونحن ننسجها، لكننا في النهاية أصبح بين أيدينا شراع ممتاز.

عندنا قن دجاج

بينما كنا نحرث الأرض لزراعتها؛ صادفنا بستان بطاطا، ففرحنا كثيراً لأننا لم نكن نتوقعها أبداً. والفرح الأكبر كان عند معمر وطورغوت؛ لأننا بعد الآن سنأكل البطاطا المقلية إلى جانب الدجاج المقلي.

فقد كانت الغابة مليئة بالدجاج البري الذي كنا نصيده كلما اشتهينا أكله. كان ألتان وجنكيز وطورغوت ومعمر يحبون البيض كثيراً، فكانوا يدخلون بين القصب أحياناً، ويجمعون بيض الدجاج. وفي إحدى الليالي سألهم العم سالم:- ألا ترغبون يا أولادي أن تقوموا بجمع البيض من قنٍّ موجودٍ في فناء بستاننا بدلاً من أن نجمعها من

الغابة؟!. صفق جنكيز وألتان ومعمر، وقالوا:

- لم لا؟! .. لكننا لا نملك قن دجاج!...

قال العم سالم:

- هذا أمر سهل!.. وستأكلون البيض حتى تملوا.

صاحوا قائلين:

- لن نمل من البيض ولو أكلناه كل يوم، عاش البيض عاش!...

- حسناً غداً صباحاً سننطلق لصيد الدجاج.

سأل الأولاد:

- هل سنصطاد الدجاج؟!.

- نعم الدجاج البري، وسنطلب من هانس أن يبني لنا قناً واسعاً.

بدأ صيد الدجاج البري في صباح اليوم التالي، شاركنا جميعاً بذلك، فأمسكنا سبع دجاجاتٍ وديكاً، فوضعناها في القن الذي بناه هانس. وهكذا أصبحنا نستيقظ على أصوات الديك والدجاجات. وكان ذلك يعيدنا بذاكرتنا إلى وطننا الجميل ...

حادثة سارة مفاجئة!

مضى علينا حتى الآن في الجزيرة ستة شهور. كانت أيامنا خلالها تسير بهدوء. تعلم هانس وبيير من اللغة العربية ما يمكنهما من التفاهم معنا في الأشياء المهمة، واحتمينا ببيتنا من الأمطار الغزيرة التي بدأت تهطل على الجزيرة.

لم يعد ألتان قادراً على الذهاب لصيد الأسماك، ولا أنا كنت أستطيع الصيد أيضاً. وكنا ننظر من النافذة بين الفينة والأخرى لنرى إن كانت الأمطار قد هدأت.

كان العم سالم وبيير وهانس جالسين يتسامرون معاً حين التفت العم سالم إلينا قائلاً:

- عندي لكم خبرٌ جميلٌ يا أولاد، فهانس وبيير يريدان إبلاغكم به.

ولم يكد العم سالم ينهي حديثه حتى وقف هانس وقال:

- أنا هانس، بكامل إرادتي الحرة أعلن إسلامي.

قام بعده بيير:

- أنا بيير قررت الدخول في الإسلام أيضاً.

لم نكن نصدق ما نسمع... أسرعنا إليهما بفرح نبارك لهما هدايتهما وإسلامهما، وأصبحنا نصلي صلواتنا معاً.. كان هانس وبيير يسألان العم سالم بشوق وفضول ليتعلما الإسلام. ورغب هانس أن يدعى (حسن). أما بيير فتسمى باسم (عمر). كان لحياتنا وتصرفاتنا أثر كبير فيهما، وكان لها دور كبير في دخولهما الإسلام كما قالا. بسبب الأمطار الغزيرة وجدنا أنه من الأفضل ألا نضع مراقباً، فالبحر الهائج كانت أمواجه تعلو كالجبال.

كنا قد بنينا موقداً في الجدار الصخري من بيتنا، ووضعنا له مدخنة يتنفس منها الدخان، وجمعنا من الحطب ما

يكفي لدفئنا في أيام الشتاء الباردة.

كنا نجلس جميعاً حول الموقد على الكراسي التي صنعها لنا حسن، نتحادث نتسامر. كانت أيامنا الماطرة جميلة تمضي بسَمَرِنا وصنع ملابسنا.

الخطر الأول

نحن الآن في أواخر سنتنا الثالثة في الجزيرة. جسم السفينة بدأ يتشكل، وأصبحنا متمرسين في حفّ الأخشاب، وتمكينها بالغراء الذي نجمعه من الأشجار.

كان حسن يقول:

- إن سفينتنا ستكون جاهزة خلال ستة أشهر.

كنا نعمل بجد ونشاط، وبالتأكيد لم نترك أعمال الصيد والزراعة،.. كنا مستمرين بالعمل بها أيضاً، زرعنا

الفاصولياء الخضراء في بستاننا، وأصبحنا نأكل منها بوفرة.

كنا هنا نعيش كالملوك، بل أفضل، فليس عندنا هموم ولا أحزان. لكنه وقعت ذات يوم حادثة غيرت حياتنا تماماً، كان الوقت ظهراً، تفاجأنا بصوت معمر المراقب وهو يصرخ من التلة المرتفعة وهو يقول:

- قارب في البحر! قارب في البحر!.

كنا وقتها من حسن الحظ نعمل جميعاً في البستان، وليس في بناء السفينة، لذلك كنا مجتمعين في مكانٍ واحدٍ.

صعدنا إلى التلة حيث يقف معمر فور سماع تحذيره، بعد أن ألقينا ما في أيدينا من أدوات، واستلقينا أرضاً ونحن ننظر إلى الجهة التي أشار إليها معمر.

كان هناك بالفعل قاربٌ بعيدٌ عن جزيرتنا، مليءٌ بالناس وكأنهم النمل عدداً.

صاح العم سالم:

- اركض يا جنكيز وأطفئ النار فوراً حتى لا يروا الدخان

المتصاعد من جزيرتنا!..

(لا بدَّ أن هذه الفكرة قد طرأت له نفسها في تلك اللحظة). فابتعد جنكيز راكضاً ليطفئ النار التي أشعلناها في البستان لنطبخ عليها طعامنا. كنا جميعاً نراقب حركة القارب بانتباهٍ شديدٍ، وفجأة لاحظنا أن القارب المتوجه نحو جزيرتنا توقف، وبقي متوقفاً لفترةٍ من الزمن. قال حسن:

- ماذا الآن؟ هل تخلوا عن القدوم إلى الجزيرة؟!.

أجاب العم سالم:

- في الغالب رأوا الدخان، فشعروا بالخوف حين علموا بوجود أناس في الجزيرة.

أضاف عمر قائلاً:

- إن السكان المحليين في هذه المنطقة محاربين شرسين.

قال العم سالم مؤيداً قول عمر:

- نعم أعرف! ولكن لم أرغب أن أقول ذلك حتى لا يخاف الأولاد، ولكن لم يعد هناك شيء يُخيفنا، ويجب علينا بعد الآن أن نكون على أهبة الاستعداد دائماً،

فالسنوات الثلاث التي مرت علينا في الجزيرة أنضجت الشباب، وما شاء الله مع أعمارهم التي كبرت؛ أصبحوا أقوى جسدياً أيضاً. ثم أضاف:

- أي أنهم قادرون بإذن الله على حماية أنفسهم في حال تعرضهم لأي اعتداء.

صاح ألتان:

- إن أتوا فسيرون منا العجب. أكمل طورغوت وجنكيز:

- نعم! نعم! سنوقفهم عند حدودهم.

قال العم سالم:

- نعم يا أبنائي بالتأكيد سندافع عن أنفسنا إن جاؤوا، فالدفاع عن النفس فرضٌ في ديننا، وعلينا الآن أن نبني ملاجئ جيدة، ولا نسمح لهم بالاقتراب منا أبداً.

أعرب رجب عن رأيه:

- يا عم سالم نحن تعلمنا استخدام البندقية، كما أننا تعلمنا استخدام القوس والسهام بعد أن نبهتنا إلى عدم الإسراف باستخدام الذخيرة،.. سنجهز المئات من السهام، فنحن قادرون على الدفاع عن أنفسنا بالأسلحة

والذخيرة.

- بالطبع يا بني! علينا الدفاع عن أنفسنا ضد هجوم العدو بكل الوسائل المتاحة، ولن نستسلم أبداً، و بإذن الله لن يحدث شيء من هذا، فربما جاؤوا إلى هنا لصيد السمك، ولم ينتبهوا لنا، ولا لدخاننا.

كم كنا نود أن يكون ما يقوله صحيحاً، ولاحظنا في تلك الأثناء أن القارب بدأ يعود أدراجه، و بقينا على التلة المرتفعة إلى أن ابتعد القارب، واختفى عن الأنظار. قال العم سالم:

- يجب علينا أن نتوخى الحيطة والحذر،.. سيستمر معمر بالمراقبة هنا يومياً...

عليه أن يكون حذراً جداً. وعلى حسن وعمر وطورغوت أن يبذلوا قصارى جهودهم لإنهاء السفينة، فسنحتاجها قريباً. وسنقوم أنا وألتان وجنكيز ومحمد ورجب بقطع أغصان الأشجار وصنع مئات الأسهم، وكذلك سنُعدّ أطعمة احتياطية ونخزنها، فقد نضطر إليها إن تعرضنا لحصار.

بدء العمل

بدأنا فوراً بتنفيذ ما قاله العم سالم، فذهب حسن وعمر وطورغوت إلى ورشة السفينة. واتفقنا على إشارة سريّة بيننا في حال اقتراب الخطر، واتفقنا أن رصاصتان متتاليتان تعني عودوا إلى البيت. وثلاث رصاصات متتالية تعني هبوا إلى النجدة.

ذهبوا لإكمال السفينة، وبدأنا نحن بقطع الأغصان التي سنصنع منها السهام. قال العم سالم:

- يجب علينا جمع أعدادٍ كبيرةٍ من الأغصان لنقوم بتشذيبها وبَرْيِها في البيت مساء.

قطعنا قرابة ألف غصنٍ قبل أن يحلّ المساء. عاد حسن وعمر وطورغوت وقد أنهكهم التعب، لكنّ عيونهم كان يملؤها بريق الفرحة بأداء الواجب...

في ذلك المساء قمنا بإزالة قشور الأغصان حتى تكون جاهزة لبريها وصنع السهام. وكان العم سالم راضياً عن عملنا، وعلى الرغم من أنه كان يعمل معنا؛ فإنه كان دائم الثناء علينا، ويُلهمنا بكلماته التي يمتدحنا بها الهمة والنشاط، وكأننا نحن من يقوم بكامل العمل.

كان بمثابة الأب لنا جميعاً، فقد جعلنا ننسى يُتْمَنا، وعلَّمَنا أشياء كثيرةً، فكان موسوعة علوم ومكتبةً متحركةً، يحمل علوماً كثيرةً، فما شاء الله لم يكن هناك شيء لا يعرفه، ويملك قدرةً كبيرةً لرفع معنوياتنا. فلا مكان لليأس بيننا في جواره، فهو يعلِّمُنا دائماً أن ننظر إلى المستقبل بعيون ملؤها الأمل.

في الأيام التالية أعددنا آلاف السهام، وصنعنا رماحاً صنعناها من العصي الطويلة، وصنعنا مضارب مدَبَّبَةً من جذور الأشجار. لم يكن العم سالم ليترك أمراً

للمصادفة، لذلك كانت التجهيزات مستمرةً على قدمٍ وساقٍ.

كان حسن وعمر وطورغوت مستمرون في بناء السفينة، ويقولون أن العمل يسير بسرعةٍ. كان حسن يقول:

- لقد سبق أن أخبرتكم أن السفينة ستنتهي خلال ستة أشهرٍ، ولكننا الآن بهذه الوتيرة السريعة سننتهي خلال فترة أقلَّ إن شاء الله.

انتهينا من صنع الحراب والسهام والرماح والمضارب المدببة، فتفرغنا لمساعدتهم في بناء السفينة، حتى أصبح جسم السفينة واضحاً تماماً، وكانت سفينةً كبيرةً يمكنها أن تحمل أعداداً كبيرةً من الناس، وكمياتٍ كبيرةً من الطعام.

أسند العم سالم مهمة جمع ثمار جوز الهند لي ولرجب وألتان.

جمعنا أعداداً كبيرة من ثمار جوز الهند، وأحضرناها إلى مكان السفينة، وكانت البطاطا والأناناس جاهزة أيضاً لنأخذها عند الضرورة، لكنّ العم سالم كان قلقاً، فكان

كلَّ ليلةٍ يسأل معمر إن كان رأى قوارب أم لا، ويُنبهه أن يراقب الأفق أمامه، ويذكّره بأن لا ينام أبداً، لأنه يحمل مسؤوليتنا جميعاً.

وكان معمر بدوره يُطمئنه، ويطلب منه ألا يقلق، ويقسم له أنه حريصٌ جداً.

كان العم سالم يعمل على إخفاء بيتنا وبستاننا عن الأنظار، ويعمل على تغطيته بالأعشاب والأوراق.

كان يقول:

- هذه العملية يطلق عليها عسكرياً اسم (التمويه)، وبهذه الطريقة يصعب على العدو اكتشاف مكاننا.

وطلب العم سالم منا أن نضع في بستاننا وأمام بيتنا أشواكاً بطول السنتيمتر أو السنتيمترين. وكان يقول:

- الويل لمن ستطأ قدمه هذا المكان.

كنا ننفذ كل هذه التدابير الوقائية، ولكننا كنا نظن أن العم سالم كثير الحرص، وأنه لا داعي لكل هذه الأمور، ولكن ما حدث لاحقاً أظهر لنا كم كان محقاً بكل ما فعله... يبدو أنه شعر بما يجول في خواطرنا، فقال لنا يوماً:

- يا أولاد! إنني ألاحظ من نظراتكم وتصرفاتكم أنكم ترون أن ما أطلبه منكم أمور لا داعي لها، إياكم أن تفكروا بهذا! فمسؤولية حمايتكم تقع على عاتقي، وكل واحدٍ منكم هو بمثابة ابني كما تعلمون، وحسن وعمر أيضاً، فلا يمكنني أن أسمح لأحدكم بأن يصاب بمكروه. والهدف من كل هذه التدابير الاحتياطية والأعمال التي أطلبها منكم هو حمايتكم من المخاطر. فأمهاتكم وضعْنَكم أمانة في عنقي بعد الله، وقطعت عهداً لهن أن أعتني بكم، أفلا يجب علي أن أكون عند وعدي وعلى عهدي؟!.

نظرنا إليه بنظرة ملؤها الحب، وقلنا معاً:

- شكراً لك يا عم سالم، فأنت لنا نعم الأب والراعي!.

- أنت بالفعل كوالدنا في حبك لنا، وحرصك علينا!.

- بل أنت والدنا في هذه الجزيرة!.

كان حسن وعمر أيضاً يقولان هذه الكلمات معنا. فقال العم سالم وقد فاضت عيناه:

- شكراً لكم يا أبنائي! رعاكم الله جميعاً، لقد أسعدتموني

بكلماتكم هذه، وأسأل الله العليّ أن يسعدكم أيضاً.
لم يكن للعم سالم أبناء، فهو لم يتزوج بعد وفاة زوجته.
فكان لكلماتنا أثر كبير فيه، وكان ينظر إلينا بشفقة الأب
الحنون.

القوارب الحربية

كنا قد اتخذنا كل الاحتياطات الوقائية، وقمنا بتخزين الطعام والشراب، فلن نعطش أو نجوع في حال اضطررنا للاختباء في البيت، وبينما نحن مشغولون بالقيام بأعمالنا اليومية سمعنا معمر يصرخ فجأة:

- القوارب! القواا....ارب!.

تسلقنا القمة بسرعة، وعندما نظرنا إلى البحر لاحظنا قرابة ثلاثة عشر قارباً تقترب من الجزيرة. قال العم سالم:

- اركض يا محمد وارم رصاصتين ببندقيتك حتى يعود حسن وعمر وطورغوت إلى البيت.

نزلت مسرعاً، وأخذت بندقيتي، وأطلقت رصاصتين في الهواء، وفي تلك الأثناء كان العم سالم ومعمر ورجب وألتان وجنكيز قد نزلوا من القمة وأخذوا أسلحتهم،

ولأن ألتان هو أفضل من يجيد استخدام السلاح بعدي أعطوه البندقية الأخيرة، وهكذا انضم ألتان لحملة السلاح.

أما رجب وجنكيز وطورغوت ومعمر فسيستعملون القوس والنشاب، وإن اقتضى الأمر سيستخدمون الحراب. كان الشباب قد تدربوا على هذه الأسلحة فترةً طويلةً، وهم الآن يتقنون استخدامها.

بعد فترة من الزمن قال العم سالم:

- ربما لم يسمع أصدقاؤنا صوت الرصاصات، فلنطلق رصاصتين من جديد تحسباً لكل الاحتمالات، ورفع بندقيته في الهواء وأطلق رصاصتين:

- بووووم! بووووم!.

سمعنا من الطرف المقابل صوت رصاصتين في الهواء، مما يعني أن أصدقاءنا قد سمعوا نداءنا.

ثم ظهر حسن وعمر وطورغوت وهم يلهثون من التعب.

قال عمر:

- أسرعنا بالقدوم إلى هنا فور سماعنا لصوت الرصاص،

لقد رأينا القوارب في البحر ونحن قادمان، وعددت في كل قارب أربعة عشر رجلاً، وبذلك يكون خمس وأربعون إلى خمسين رجلاً قادمين نحو جزيرتنا، وبأيديهم حراب تلمع تحت أشعة الشمس.

قال العم سالم رافعاً من معنوياتنا:

- إن الله معنا، وعندنا خمس بنادق، وخمس قناصين، ولا ننسى رماة السهام والحراب، فقد رأيت بأم عيني كيف يصيب جنكيز ورجب وطورغوت ومعمر أهدافهم، فهم أفضل من أفضل قناص، فإياكم أن تخافوا، وبإذن الله نحن قادرون على الدفاع عن أنفسنا بكل سهولة. هيا الآن لنسند أكياس الرمل التي جهزناها على جدران البيت المصنوع من أغصان الشجر حتى لا تمر من خلال الأغصان وتؤذينا.

أحضرنا أكياس الرمل وأسندناها على الجدران، ووضعناها بحيث ترتفع مسافة مترين.

ثم صعدنا على القمة القريبة من بيتنا لرؤية ما يفعلون، ونتحرك بحذرٍ شديدٍ حرصاً منا حتى لا ينتبه إلينا العدو.

كانت القمة مطلة تشرف على المنطقة كلها، فنراهم بسهولة، وحين بلغناها كانت قوارب السكان المحليين قد وصلت للتو إلى الساحل، فنزلوا منها، وسحبوا قواربهم من البحر إلى الرمال. كان أحدهم شخصاً ضخم البنية يضع على رأسه قبعةً مصنوعةً من الريش، يبدو أنه رئيسهم، يصدر الأوامر، والباقون يهزون رؤوسهم موافقين، وكأنهم يقولون: (حاضر أمرك مطاع يا سيدي)، ثم دخلوا الغابة مسرعين.

قال العم سالم:

- الحذر الحذر يا أبنائي! علينا أن ننتظر بهدوءٍ حتى يجدونا، ويهاجموننا، ولنكتف بحماية أنفسنا.

أسرعت قائلاً:

- سنحمي أنفسنا، وسنهزمهم بإذن الله!. فأيدني بذلك أصدقائي.

قال العم سالم:

- بإذن الله يا رجالي الشجعان!. إنّ قتل الآخرين وإراقة الدماء حرام، ولكن الدفاع عن النفس فرض، وليكن

الله في عوننا. لا تنسوا أنه عندما يصل الأمر إلى درجة عدم قدرتنا على الدفاع عن أنفسنا في البيت؛ سنصعد إلى القمة، ونستخدم كل قوانا.

صرخنا:

- هيا معاً إلى النصر!.

ثم أسرعنا بالنزول إلى بيتنا، وأمسك حملة السلاح أسلحتهم، والنشابون قوسهم وسهامهم، وبدأنا ننتظر.

القتال المخيف

استمر انتظارنا في البيت الذي تحول إلى قلعة مدة ثلاث ساعات، ومع نهاية الساعة الثالثة رأينا أشخاصاً مقابل بيتنا بين الأشجار يقتربون منه بهدوء. كانوا يرتدون أشياء مصنوعة من الريش تستر عوراتهم فقط، وكانت أجسادهم العارية ضخمةً جداً.. كانوا مفتولي العضلات مما يدل على قوتهم.

كنا ننتظر ونحن نحبس أنفاسنا، ويبدو أنهم تتبعوا آثار أقدامنا حتى وصلوا إلينا، ثم تفرقوا في كل مكان، ووصلوا أمام بستاننا.

كان رئيسهم الضخم يصرخ في الآخرين وهو يشير إلى بيتنا، بمعنى أنهم كانوا يعلمون أننا في البيت.

وانطلق الرجال الخمسة والأربعون أو الخمسون يركضون نحو بيتنا رافعين حرابهم إلى الأعلى وهم يصرخون. كانت صيحاتهم تقشعرّ لها الأبدان، ومخيفة لدرجة تُجمّد الدماء في العروق، لم نكن قد سمعنا في حياتنا مثل هذه الصيحات المخيفة. في تلك اللحظة سُمع في الغرفة صوت العم سالم القوي والرجولي وهو يقول:

- نااااااااااااار! أطلقوا النار! هيا يا رجال!...

أطلقنا النيران من البنادق الخمسة، فسقط خمسة رجال من الراكضين نحونا. واستطاعت حرابهم خرق أكياس الرمل، وغرزت في الحائط المقابل في الدروج والرفوف عندها سقط طبق كان العم سالم يحبه، وتحطم متناثراً في كل مكان.

في المرة الثانية أسقطنا ثلاثة آخرين، ثم تراجعوا إلى الوراء، وأصبحوا يقفزون في أماكنهم بفوضى عارمة. كان واضحاً أنهم داسوا على الأشواك التي أمرنا العم سالم بقراره الرائع أن نفرشه أمام بيتنا.

وتبيّن لنا صحة ظننا فيما بعد إذ كان أكثرهم يعرجون

على أقدامهم في الحملة الثانية علينا، وأطلقنا النار مرةً أخرى، فسقط أربعةٌ أو خمسةٌ آخرون أرضاً. كانت حرابهم ذات الأسنة الحادة تنهمر على بيتنا كوابل المطر، واستطاع ثلاثةٌ منهم أن يقتربوا من بيتنا كثيراً، فقامت الأشواك: وظيفتها بشكلٍ رائع، فلاذوا بالفرار. فارتفعت معنوياتنا كثيراً، لكن رئيسهم بتعابير وجهه الصارمة وصياحه القوي كان يناديهم، وهو يصيح فيهم: (هولو! هولو!).

خلال لحظات اختفى الجمع بين الأشجار، فقال ألتان وهو لا يُبعد بصره عن الفراغات بين أكياس الرمل:

- ذهبوا!.. ولكنْ هناك أمرٌ يُحيّرني: لماذا لم يخافوا من البنادق؟!، ألم يكن عليهم أن يخافوا ويهربوا عند سماع صوت هذه الآلة المخيفة؟!، ففي الكتب التي قرأتها عنهم كانوا دائماً يلوذون بالفرار.

قال رجب ممازحاً:

- هؤلاء ليسوا كالسكان المحليين ممن قرأت عنهم في كتبك، ربما يعرف هؤلاء صوت البندقية...

الهجوم مجدداً

بينما كنت أراقب خارج البيت من الفراغات بين أكياس الرمل رأيت السكان المحليين يعودون من الغابة، فصحت قائلاً:

- إنهم قادمون....

اقتربنا جميعاً من أكياس الرمل، كانت أسنة رماحهم ملتهبة هذه المرة، ورموا تلك الرماح على بيتنا فغرزت فيه، وبدأت الأغصان والأوراق الجافة تحترق فوراً. وصرخ العم سالم وهو يطلق النار:

- لا تسمحوا لهم بالاقتراب وحافظوا على الرصاصات، فإذا نفذت رصاصاتنا فستكون عاقبتنا سيئة، لا تطلقوا النار إلا بعد أن تتأكدوا من إصابة الهدف. ثم التفت إلى رجب وطورغوت ومعمر وجنكيز قائلاً:

- حاولوا إطفاء النيران.

لابدّ أن السكان المحليين قد أخذوا درساً من الأشواك التي غرزت في أقدامهم، لأنهم هذه المرة قاموا بلف أقدامهم بأوراق سميكة من اللبلاب.

98 بعد الهجوم النّاري علينا تحولوا إلى الهجوم بصيحاتهم التي تقشعر لها الأبدان رافعين حرابهم إلى الأعلى. فواجهناهم مرةً أخرى بإطلاق النار من بنادقنا، فسقط خمسةٌ منهم، لكن معظمهم استطاع الاقتراب من البيت، وبقينا نطلق النار، وأسقطنا خمسةً آخرين، وتمكّن ثلاثةٌ منهم اقتحام الباب، فتراجعتُ إلى الوراء، وأطلقت النار على أول الداخلين، فتلوى بين الدخان وسقط أرضاً، ثم دخل وراءه اثنان آخران، كان بيد أحدهما خنجرٌ، وبينما كان يهمّ بالهجوم على طورغوت

بالخنجر؛ رأيت العم سالم يقفز بسرعة البرق ليقف بين المحليّ المهاجم وطورغوت، واشتبك ألتان مع الثاني، وانطرحا أرضاً فوق بعضهما.

ضرب جنكيز المحليّ الذي كان فوق العم سالم بكرة مدببة على رأسه فسقط الرجل أرضاً وهو يئن، وأهوى حسن بالرمح على رأس المحليّ المشتبك مع ألتان، وعمر يستمر بإطلاق النار على المحليين المهاجمين في الخارج.

الحزن

تدافع المحليون هاربين بعد أن كبدناهم خسائر كبيرةً، لكن فرحتنا مع الأسف لم تدم طويلاً؛ لأن العم سالم وهو يتابع معنا هروبهم سقط على الأرض وهو يئن من الألم. فجعلناه يستلقي على ظهره، وضبطنا أنفاسنا بصعوبة حتى لا نصرخ حين رأينا على صدره قريباً من قلبه بقعة دم تكبُر... لقد كان مصاباً!.

أمسكناه بلطف من يديه وقدميه، ووضعناه على سريره، وقصصنا قميصه لنكشف عن جرحه... كان حسن خبيراً بمثل هذه الأمور.

اصفر وجه العم سالم، وانطبقت عيناه، فنظر حسن بحزنٍ إلى وجهه، ثم حاول إيقاف النزيف بوضع قطعة قماشٍ على الجرح.

فتح العم سالم عينيه برهةً، وسأل:

- هربوا أليس كذلك؟ ثم أغمي عليه ثانيةً.

كان هناك اثنان من السكان المحليين مصابَيْن في الخارج، فحملناهما إلى البيت، ووضعناهما على الأسرة.

كنا نتحرك بحذرٍ شديدٍ ونحن نقوم بهذه الأمور.. لقَّمْنا بندقياتنا أنا وألتان، وجهزناها لإطلاق النار، وكنا على أهبة الاستعداد؛ لأننا كنا نخشى من هجومٍ جديدٍ من السكان المحليِّين.. وأحمد الله أن ما خشيناه لم يحدث، لكننا صعدنا إلى رأس التلة تحسباً لأي احتمالٍ ممكنٍ، وبأيدينا بنادقنا، وأَجَلْنا أبصارنا حولنا.

كان السكان المحليون على الساحل، وقد جلسوا على الرمال بشكل دائرة.. كانوا على الأرجح يتباحثون.

بادر جنكيز بفكرته وهو يقول:

- لماذا لا نذهب ونُغير عليهم؟!.

- اعترضت قائلاً: لا، لا يمكن ذلك، فنحن ندافع عن أنفسنا عندما نتعرض للهجوم، ولكننا لا يمكننا أن نكون الطرف المهاجم.

قال رجب:

- ولكن كيف لنا أن نضمن ألا يهاجموننا ثانيةً، أو أن يذهبوا إلى جزيرتهم ويعودوا بعدد أكبر من المحاربين.

وبدأ كل واحد يبدي رأيه، ثم قرَّرْنا أن نصوّت لفكرة (الهجوم عليهم)، وكانت نتيجة التصويت أن نهاجمهم. حتى أنا أعطيت جنكيز الحق، فقد كان واضحاً تماماً أن هؤلاء سيهاجموننا. وإن قاموا بجمع أصدقائهم والعودة لكان ذلك أشد خطراً. ولذلك كان القرار المتخذ بالهجوم صواباً.

ملاحقة السكان المحليين

تركنا معمر في البيت ليعتني بالعم سالم، ويراقب المحلِّيَّيْن المصابَيْن، وخرجنا حاملين بنادقنا وحرابنا.

طلب منا حسن وعمر أن نركض، كان حسن في المقدمة يقودنا، وحين دخلنا الغابة بدأنا نسمع صوت قرع الطبول، ربما كانت هذه الأصوات تنبئ بالهجوم المتوقع، كنت أركض وأشجع أصدقائي قائلاً:

- هيا يا أصدقاء! ليس هناك ما تخشونه.

عند اقترابنا من نهاية الغابة انتبهنا إلى ابتعاد أصوات الطبول، فصاح حسن قائلاً:

- إياكم أن تُظهروا أنفسكم، أو أن يروكم، ولنقترب منهم

بهدوءٍ، ولنراقبهم خفيةً.

تحركنا كما قال لنا، واقتربنا من الساحل، واستلقينا على الأرض بين الأشجار الكثيفة. وهناك عرفنا سبب ابتعاد صوت الطبول، فالمحليون ركبوا قواربهم، وانطلقوا مبتعدين.

قال ألتان:

- لنطلق عليهم النار ليعرفوا أننا نلاحقهم، فربما يخافون ولا يجرؤون على العودة إلى هنا ثانية.

وقام يريد الخروج من بين الأشجار، فأوقفه حسن فوراً ووبخه وهو يقول:

- ماذا تفعل يا ألتان؟ هل جننت؟!.

سأله:

- لماذا؟.

- ألا تعرف لماذا؟! هل تريد أن تُبَيِّن لهؤلاء أنَّ عددَنا قليلٌ.

ضحك ألتان وقال:

- صحيح معك حق!. ثم سأل:

- ولكن ألا أستطيع أن أطلق عليهم بعض الرصاصات من هنا؟!.

أجابه قائلاً:

- حسناً، ولكن أطلِقِ النار بحذرٍ، ولا تطلقْ أكثر من ثلاث رصاصاتٍ!. تعلمُ أنه لا ينبغي أن نُسرف في استخدام الرصاص، فنحن لا نعلم ما تخبئه لنا الأيام، حتى لا نتحسَّرَ يوماً على الرصاصات التي أسرفناها.

اتخذ ألتان وضعية الاستعداد، وأطلق النار على أحد القوارب المبتعدة، ولا بدّ أن السكان المحليين فهموا أن خسائرَهم ستكون كبيرةً، ولذلك بدؤوا يجدّفون بسرعةٍ.

فقال جنكيز ضاحكاً:

- إن هذا الخوف يكفيهم.

وراقبنا اختفاءهم عن الأنظار بفرحٍ يختلط بألمٍ كان يعتصرُ فؤادَنا.

الخسارة المؤلمة

حين رجعنا إلى البيت وجدنا معمر عند رأس العم سالم يضع منديلاً مبللاً على جبينه، ويحاول أن يخفف حرارته. فرح حين رآنا، وأخبرنا بأن العم سالم فتح عينيه وسأل عنا، ثم أغمي عليه ثانية.

سأل حسن:

- كيف حال الآخرَيْن؟!.

أجابه معمر:

- كانا يهذيان أيضاً، وينتفضان من فراشهما أحياناً، لقد خفت منهما كثيراً، إياكم أن تتركوني معهما ثانية!.

لو لم يكن وضع العم سالم حرجاً لكانت كلمات معمر هذه ستضحكنا، ولكن اكتفينا ونحن نقول: حسناً!.

لم يستطع العم سالم أن يفتح عينيه إلا بعد انتهائنا من صلاة العشاء.

كان يئنّ قائلاً:

- ماء.. ماء!.

ركض طورغوت حتى يجلب له الماء من الرفوف حيث الأطباق. لكن حسن وعمر منعاه من ذلك:

- إياك يا طورغوت أن تعطيه ماءً!.

- ولم لا؟!.

- لا يعطى الجريح ماءً، لأنه ربما يتسبب بوفاته!.

- لكنه يطلب الماء!.

- لا يمكننا أن نعطيه ماءً الآن!.

نادى العم سالم:

- يا أبنائي أنا لا أستطيع رؤيتكم، فالظلام يعُمُّ المكان! أين أنتم؟!.

وعلى الرغم من أن غرفتنا كانت مضاءةً بالشموع التي

أشعلناها؛ ركضنا جميعاً إليه:

- نحن هنا يا عمنا!.

- نحن بجانبك يا عمنا العزيز!.

- ننتظر شفاءك!.

تكلم العم سالم وهو يهمس:

- لم نفقد أحداً أليس كذلك يا أولادي؟! جميعكم أحياء أليس كذلك؟!.

أجبناه بصوتٍ مرتجفٍ:

- نعم كل ما يهمنا هو أنت!.

- لا تحزنوا يا أبنائي لن يحدث إلا ما كتبه الله، فكلنا سنموت، كما وُلدنا سيأتي يوم نموت فيه، ثم إن الموت ليس نهاية، وإنما هو مرور إلى عالم آخر، ألم تسمعوا الحديث الشريف الذي يقول فيه صلى الله عليه وسلم: ((الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا))؟!، كونوا دائماً من خير الناس يا أبنائي، وليكن الموت لكم عبرةً.

فقبل ساعتين أو ثلاث كنت أمازحكم وأحادثكم...

إن كل عمل نعمله في الدنيا سنحاسب عليه أمام الله،

إياكم أن تنسوا هذا...

اعملوا على إتمام السفينة في أسرع وقتٍ، لأنه من الممكن أن يعودوا للانتقام، وفي المرة القادمة ستكون أعدادهم أكبر. وإذا نفذت رصاصاتكم فستقعون بأيديهم، لذلك عليكم الهروب من الجزيرة في أسرع وقتٍ.

بينما كان العم سالم يحادثنا بدأ أحد الجرحى يهذي وينتفض. سأل العم سالم:

- ما هذا الصوت؟!.

- أجبناه قائلين: هناك جريحان منهم يا عم سالم، وأحدهما يهذي.

- جميلٌ! أحسنتم يا أبنائي. أظهروا إنسانيتكم بمساعدة كل من يحتاج، حتى ولو كان عدوكم، فالله في عون الأخيار، ولا يحب الظالمين. يا أبنائي إن أنفاسي باتت معدودةً أعطوني ماءً وسأترككم في عهدة الله...

نظرنا إلى وجوه بعضنا، وأشار لنا حسن وعمر برأسهم أنه يمكننا تقديم الماء... يبدو أنهما فقدا الأمل من العم سالم، فركضنا جميعاً لجلب الماء، وكان رجب أسرعَنا،

فوضع الكأس على فم العم سالم.

شرب العم الماء بعد أن سمى الله، ثم حمد الله، وسمعناه يهمس بالشهادتين، ثم توقف وجهه المنير عن الحركة.

بكينا عليه جميعاً بحرقة، وكان الألم يعتصرنا بشدةٍ، فقد فقدنا رجلاً كان بمثابة والدنا الحقيقي، وكان حسن وعمر يقولان:

- جزاه الله خيراً،.. كان السبب في اعتناقنا الإسلام،.. نسأل الله أن يعفو عنه،.. لن ننساه أبداً.

ربطنا الجرحى إلى أسرتهم دون أن نلحق الأذى بجراحهم، لأننا لم نكن نعرف كيف سيتصرفون عندما يعود إليهم وعيهم.

اهتم حسن بمعالجتهم. وقال:

- إن حالتهم ليست خطرة، وسوف تتحسن صحتهم خلال بضعة أيام.

وبالفعل، كانت حالة أحدهما مع اليوم الثالث قد تحسنت. وبين دموعنا المنهمرة قمنا بدفن العم سالم، ثم اتجهنا فوراً إلى بقية الموتى، وحين وصلنا إليهم وجدنا معهم أشياءً سببت لنا ألماً شديداً، ودهشةً بالغةً.

كان أحدهم يضع بيده سواراً فضياً، ولم يكن السوار غريباً عليّ، وحين أخذته، وأمعنت النظر فيه، وجدت اسم أبي محفوراً عليه، إنه كان سوار أبي، فصُعقت، وسقطت مغشياً عليَّ.

عندما صحوت، وجدت جنكيز ومعمر يبكيان بحرقة.

فقد وجدا ساعة جيب معلقة على رقبة آخر، فكان الرجل يضع الساعة كقلادة في عنقه، وحين فتحا غطاء الساعة وجدا صورة والد جنكيز، وآخر كان يلبس سوار والد معمر. بعد أن دفناهم جميعاً، ونظفنا بستاننا، جلسنا نتحادث.

إن هذه الأشياء التي وجدناها مع هؤلاء والتي تعود 113
لآبائنا تدل أن آبائنا قد وقعوا بأيدي هؤلاء البشر، وهذا
يعني أن آباء طورغوت ورجب وألتان قد تعرضوا للمصير نفسه.

حين وجدنا تلك الأدلة مع هؤلاء الرجال واجهنا حقيقةً مؤلمةً جداً، فقد فقدنا آباءنا بالفعل، وانهمرت دموعنا غزيرةً وبصمتٍ.

ثم توجهنا إلى الجريحين، كانا ينظران إلينا بخوفٍ، وكم كانت دهشتهما كبيرة حين قدّمنا لهما حساء دجاج ليتناولوه. أطعمناهما بأيدينا، وتصرفاتنا كانت كفيلةً بإزالة خوفهم، فذهبت عنهم ملامح الخوف تاركة مكانها علامات الإعجاب. فهم بشر، والبشر مهما اختلفت ثقافتهم؛ فإنهم بفطرتهم يقدّرون المعروف. وتحسنت صحتهم مع نهاية اليوم الثالث، وحاولنا أن نتحدث معهم، لكنها اللغة، فلا نحن فهمنا عليهم، ولا هم فهموا علينا، حاولنا معهم بلغة الإشارات دون جدوى، وأدركنا أن هذا أيضاً غير ممكن. فكنا مجبرين على أن نترك أمر التفاهم للوقت.

بعد فترةٍ قصيرةٍ بدأ معمر يتفاهم معهم بشكل جيد، وأصبحوا أصدقاء. واستعادا قدرتهما وقوتهما خلال فترةٍ قصيرةٍ، وربما كانا سيساعداننا في إتمام سفينتنا.

سفينتنا شارفت على الانتهاء

كانت كلمات العم سالم ترِنُّ في آذاننا، فكل ما قاله لنا وهو على قيد الحياة يتحقق. فقد كان رجلاً ذكياً عاقلاً بعيد النظر. كان علينا أن نسرع، وننتهي من بناء السفينة في أسرع وقتٍ.

ووضعنا طورغوت ومعمر للمراقبة خوفاً من حدوث أي هجوم مباغتٍ.

كنا نذهب كل يومٍ إلى مكان بناء سفينتنا بعد صلاة الفجر، ونعمل حتى وقت متأخر من الليل.

لم أغفل عن الرجلين على الرغم من مساعدتهما لنا، وكنا نطعمهما مما نأكل حتى يشبعا، فهما أسيرا حربٍ،

ويجب الإحسان إلى الأسير.

لذلك كنا نبذل قصارى جهدنا لمعاملتهم أحسن معاملة، لأن رسولنا الكريم أمرنا أن نحسن إلى أسرانا، ونحن نتبع سنته صلى الله عليه وسلم.

لا بد أنهم شعروا بحسن نيتنا، فكانا يعاملاننا باحترام، بل ويسارعون إلى مساعدتنا في أوقات شدتنا. وذات يومٍ تعرضنا لهذه الحادثة:

116 فبينما كان حسن يرفع ساق شجرةٍ انزلق الساق من يده، فسقطت على قدمه وهرسته. نظرنا نحوه حين سمعنا صيحات ألمه، وركض أصغر الأسيرين ورفع الساق، ثم ربت على رأسه وهو يبدي تألمه لألم حسن.

وقفز الثاني فجأة وتوغل في الغابة. فصرخت قائلاً:

- إنه يهرب.

وأطلقت خلفه رصاصةً لكني لم أصبه، وغاب عن الأنظار.

وحاول أصدقائي التخفيف عني لهروبه وهم يقولون:

- ما عليك بأسٍ، فلن يؤذينا وحده!.. سيعيش وحيداً

في جهة من الغابة، فلا تحزن لهروبه.

وتبين لنا خطؤنا جميعاً عندما عاد، وفي يده أوراقٌ وأعشابٌ مختلفةٌ. كان يحاول أن يقول لنا شيئاً وهو يتكلم بالإشارات، فهم جنكيز ما يريده الرجل، فقال:

- علينا أن نغلي هذه الأوراق، ونضعها بعد ذلك على قدم حسن، ويقول: إن هذه الأعشاب ستزيل ألم المنطقة المصابة، وتمنع انتفاخها.

سمحنا له أن يقوم بما يقول، وبعد غلي الأعشاب والأوراق وضعها على ساق حسن..

استمر حسن في العمل، رافضاً إصرارنا على الاستراحة. 117

وفي صبيحة اليوم التالي لم يتمكن حسن أن يقف على قدميه على الرغم من جبيرة الأوراق المغلية على المنطقة المصابة، ولم يستطع أن يمشي يومين أو ثلاثة أيام. فقمنا بنقله إلى التلة المرتفعة ليقوم بالمراقبة عوضاً عن معمر وطورغوت للذين حلا مكانه في بناء السفينة، فقد كنا في عجلةٍ من أمرنا، نحتاج إلى كل يد عاملة.

أدركنا في هذه الحادثة كيف أن المعاملة الحسنة قادرةٌ

على تغيير البشر، حتى عدوك ربما يصبح صديقاً بالمعاملة الحسنة.

لم نكن نجبر الأسرى على البقاء معنا، لكننا كنا نشعر أنهم قد ارتبطوا بنا، فلم يكونون يفارقوننا أبداً، وكانوا يسارعون لتنفيذ كل ما نطلبه منهم بكل لهفةٍ ومحبةٍ.

كانوا يستمعون إلينا بدقةٍ، ويحاولون تكرار ما يسمعونه من كلماتنا، وكلاهما كان ذكياً للغاية.

أعطينا أحدهما بنطال وقميص العم سالم، والثاني أعطيناه من ملابس حسن. بدايةً لم يعجبه ارتداء القميص والبنطال، لكننا شرحنا له بالإشارة أننا أيضاً نرتدي ملابس، وأن العري ليس أمراً مستحباً. وذات ليلةٍ قررنا تسميتهما، فأطلقنا على الكبير اسم جعفر، والصغير سميناه سعيداً. فاعتادوا على أسمائهم الجديدة خلال فترةٍ قصيرةٍ، وبدأا يناديان بعضهما: (جعفر!..) (سعيد!..).

وكنا قد بدأنا نحبهم.

ظهروا ثانيةً!

كانت السفينة قد شارفت على النهاية، وربما بقي عمل يومين أو ثلاثة، وجهزنا مزالق كبيرةً وعريضةً بهدف وضع السفينة عليها، وسحبها بالمزالق إلى البحر. وبينما كنا نضع المزالق في أماكنها المقررة؛ سمعنا صوت رصاصتين أطلقهما حسن من القمة التي يراقب منها. سمعنا أولاً رصاصتين، وكانت تعني: (تعالوا! الخطر قادم).

تجهزنا بسرعة للانطلاق إليه ونحن نمر عبر الصخور، سمعنا صوت رصاصتين ثانيتين. ثم تلتهما ثلاث رصاصات... وبعدها سمعنا صوت رصاصاتٍ متتاليةٍ.

ترى ماالذي كان يحدث لحسن؟ كيف ينبهنا حسن بعدم الإسراف في استخدام الرصاص، ويطلق كل هذا الرصاص؟!.

ركضنا بسرعةٍ وقد علمنا أن هناك أمرٌ جلَلٌ، وحين وصلنا إلى البيت رأينا رجلين يفران، ثم يدخلان الغابة ويختفيان عن الأنظار، واثنان كانا مستلقيين على الأرض أمام الباب. أحدهما كان قد مات، والآخر كانت إصابته خطيرة. ذهب جعفر وسعيد إليه، وتكلم الرجل المصاب

مع جعفر وسعيد بصعوبةٍ شديدةٍ، وأحضرنا فراشاً من إحدى الأسرة، وأعطيناه لجعفر وسعيد ليضعا صديقهما عليه، فوضعاه عليه، ثم اتجها نحو الغابة، ثم عادا بعد قليل يحملان أعشاباً وأوراقاً لعلاج الإصابة، ثم قاما بغلي تلك الأعشاب، وجلسا عند رأس صديقهما وهما يترنمان بما يشبه الأغنية.

ما أخبرنا به حسن

صعدنا إلى القمة فوجدنا حسن واقفاً وبيده بندقيته، وحين سألناه عما حدث قال:

- كنت دائم النظر إلى البحر أراقبه، حتى كانت مني التفاتة إلى البيت، ويا لهول ما رأيت!.. رأيت أربعة رجال من السكان المحليين يتجهون إلى البيت وبأيديهم الحراب!، وأحمد الله أن مكاني لم يكن ظاهراً لهم من الأسفل، فلو أنهم رأوني لغافلوني أثناء نظري إلى البحر، وضربوني بالرمح.

حين رأيتهم يقتربون من البيت أحسست بعرقٍ باردٍ ينزل من ظهري إلى أخمص قدمي، ولأهمية الوقت

اتجهت زاحفاً إلى حافة التلة، وصوّبت بندقيتي نحو الرجلين المقتربين من الباب وأطلقت النار عليهما. وبذلك أصبتهما، وأعطيتكم إشارة الإنذار. وسقط المصابان، وهرب الآخران واختفيا. وحين رفعت رأسي قليلاً رأيت أحدهما يزحف باتجاه القمة.

فأطلقت على الفور ثلاث رصاصات، ولا أعلم إن كنت قد أصبته أم لا. وانتبهت إلى أن الآخر يزحف صاعداً من الطرف الآخر من القمة، فما كان مني إلا أن أطلقت النار عليه.

وتوكأ علينا حسن، ونزلنا من القمة، وقمنا بِعَدِّ رصاصاتنا المتبقية، كان مجموع الرصاصات التي معي ومع ألتان وعمر وجنكيز وحسن؛ ثلاثاً وأربعين رصاصةً.

كان وضعنا خطيراً، فلو أنهم هاجمونا بأعدادٍ كبيرةٍ كان ذلك يعني انتهاءنا، فإذا افترضنا أن رصاصاتنا كلها أصابت أعداءنا؛ فإن انتصارنا عليهم يكون مُحالاً. في تلك الأثناء ركض جعفر باتجاهنا وهو يصرخ، كان يقوم بحركاتٍ ويشير أن المحليين سيأتون إلى الجزيرة، ثم

يشير إلى أصابع يديه وقدميه ليبين أن القادمين كُثرٌ! كُثرٌ!. وأخبرنا وهو يشير إلى صديقه المصاب أنه قال: إن السكان المحليين سيهجمون غداً صباحاً وبأعدادٍ غفيرةٍ.

وفهمنا من جعفر وسعيد أن رئيسهم مغتاظٌ جدّاً، وأنه أقسم على الانتقام، وأن أصدقاءهم اليوم قد جاؤوا لإنقاذهما.

حين رأى جعفر وسعيد أننا قد فهمنا ما أرادا قوله، بدأا يتوسلان إلينا وهما يبكيان أن نبتعد عن الجزيرة، لأنه ليس بإمكان أحد إيقاف الرئيس، فهو شخصٌ ظالمٌ ليس في قلبه ذرة رحمةٍ.

لقد تأثرنا كثيراً بحالتهما هذه، فعانقناهما، وشكرناهما، فكيف لنا أن نعلم بأمر الهجوم غداً لو لم يخبراننا؟!.

العمل ليلاً

لم يكن هناك وقت نضيعه، فقمنا فوراً بإفراغ البيت. وكان هناك نبع ماءٍ ينبع فوق المكان الذي نبني فيه السفينة بين أشجار الصنوبر فخططنا أن نأخذ حاجتنا من الماء من تلك العين، وأخذنا ما خزّناه من الطعام معنا.

كان القمر بدراً، واستند حسن علينا وانطلقنا، وفي الوقت الذي كنا نقوم به بالتحضيرات كان المصاب قد مات. وحمل جعفر وسعيد أحمال ثقيلة على كتفيهما، وحين بدأنا المسير ركض جنكيز إلى الحظيرة وهو يقول:

- الأغنام! نسينا الأغنام!.. وعاد بعد قليلٍ بالأغنام

التي ربطها من قرونها بأوراق اللبلاب، ومن خلفهما كان الحملان يتبعان أمهما، وتركنا الدجاجات.

عند وصولنا إلى السفينة ذهب رجب و معمر وألتان لملء المياه، ونحن حاولنا إنزال السفينة إلى الماء بواسطة المزالق التي جهزناها. لكننا كنا قد نسينا الشراع، ذلك الشراع الذي نسجناه بقوة من الكتان، وخبأناه بين الصخور في مكانٍ قريبٍ.

ذهبت مع جنكيز وحملنا الشراع بصعوبة بالغة وأحضرناه،.. فاستغرق إنزال السفينة إلى الماء وقتاً طويلاً... ولا يمكننا أن ننسى الجهود التي بذلها جعفر وسعيد من أجلنا، والخدمات التي أدَّوْها لنا، فلولا مساعدتهما لنا لما نجحنا أبداً.

مع بداية شروق الشمس كانت سفينتنا تحتضن مياه البحر، وتسبح بهدوء،.. وكنا نصرخ من الفرح، ونحمد الله. كان عليّ الآن ربط أشرعة السفينة، ونجحنا بوضع الشراع على السارية كما علّمنا حسن وعمر،.. لكنّ ذلك استغرق معنا ساعتين من الوقت.

نحو النجاة

وضعنا طعامنا وشرابنا في السفينة، وبينما كنا نضع الأغنام سمعنا صراخ رجب وهو يقول:

- القوارب !القوارب! المحليون قادمون! وقد سدوا الأفق بأعدادهم!...

صعدنا فوراً فوق الصخور حيث رجب، ونظرنا فرأينا قوارب كثيرةً جداً، وقد ملأت البحر، وسدت الأفق أمامنا، كانوا قادمين بسرعةٍ هائلةٍ، فركضنا إلى الأسفل بسرعةٍ خائفين.

لم ننس أن نضع في السفينة مجاديف وأعمدةً، وقد

استخدمناها لإبعاد السفينة عن الساحل وضربها بقاع البحر. ثم أسرعنا إلى المجاديف، وقبل أن نركب السفينة كنا قد ودعنا جعفر وسعيد وعانقناهما، كانت الدموع تتلألأ في أعيننا جميعاً، كنا قد اعتدنا عليهما، أما جعفر وسعيد فقد بقيا على الساحل، والدموع تجري من عيونهما بحرقةٍ. وبالتجديف ابتعدنا عن الساحل قليلاً، وهناك بدأت نسمات الهواء تداعب وجهنا، وتنفخ شراعنا.. عندها رفعنا المجاديف، فالأمر الآن بات بيد الرياح، ومن حسن حظنا، كانت الرياح تهب بقوةٍ حاملةً معها سفينتنا كطائر نورس يتبختر في البحر.

انتبهنا إلى جعفر وسعيد على الساحل، كانا قد نزلا على ركبهما وهما يبكيان بصوتٍ عالٍ ويشهقان، فرفعنا أيدينا مودعين مع كل مشاعر الحب والصداقة التي ملأت قلوبنا... كانت أشرعتنا قد انتفخت بشكلٍ رائعٍ، وبدأت الرياح تجري بسفينتنا بسهولةٍ بالغةٍ في البحر. ووجّه عمر دفّة السفينة جنوباً في ذلك البحر الواسع.

بدت لنا جزيرتنا التي عشنا فيها ثلاث سنوات كأنها

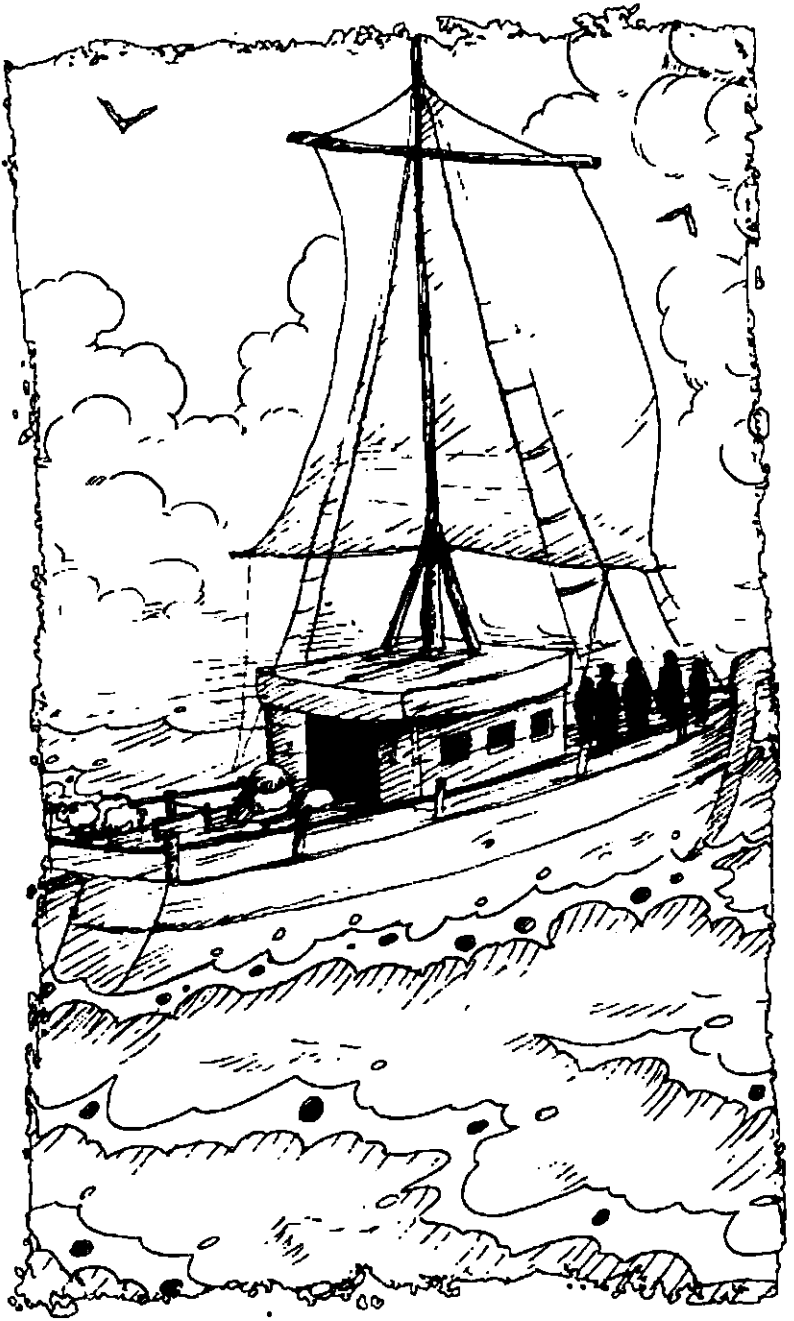

مدينة رواياتٍ، وأصبحت بعيدةً بعيدةً، تفصلنا عنها وعن السكان المحليين مسافاتٌ من أفق البحر الممتد... كانت مشاعرنا تعمل في أعماقنا غريبةً متناقضةً، و كان ابتعادنا عن جزيرتنا الحبيبة التي اعتدنا عليها يترك آثاره فينا،.. وفاضت أعيننا جميعاً بالدموع، فها نحن ذا نفارق عمنا الحبيب سالم،.. عمنا الذي لن ننساه أبداً،.. ولن ننسى نصائحه التي لا زالت ترن في آذاننا، تثير فينا ذكرياتٍ عصيةً على النسيان:

(كونوا أناساً خيرين يا أبنائي، كونوا أشخاصاً مفيدين لأوطانكم وأمتكم، والتزموا الصدق والأمانة، واعملوا، فالله عز وجل في عون العاملين الصادقين).

وقطعت عهداً بيني وبين نفسي: (سنكون كذلك يا عم سالم، نعدك سنكون من خيار البشر)...

وهكذا كانت جزيرتنا تصغر رويداً رويداً.. ثم تتلاشى عن الأنظار.